من الأدب الساخر

254

يوسف معاطي

الطبعة الخامسة

عسل أبيض

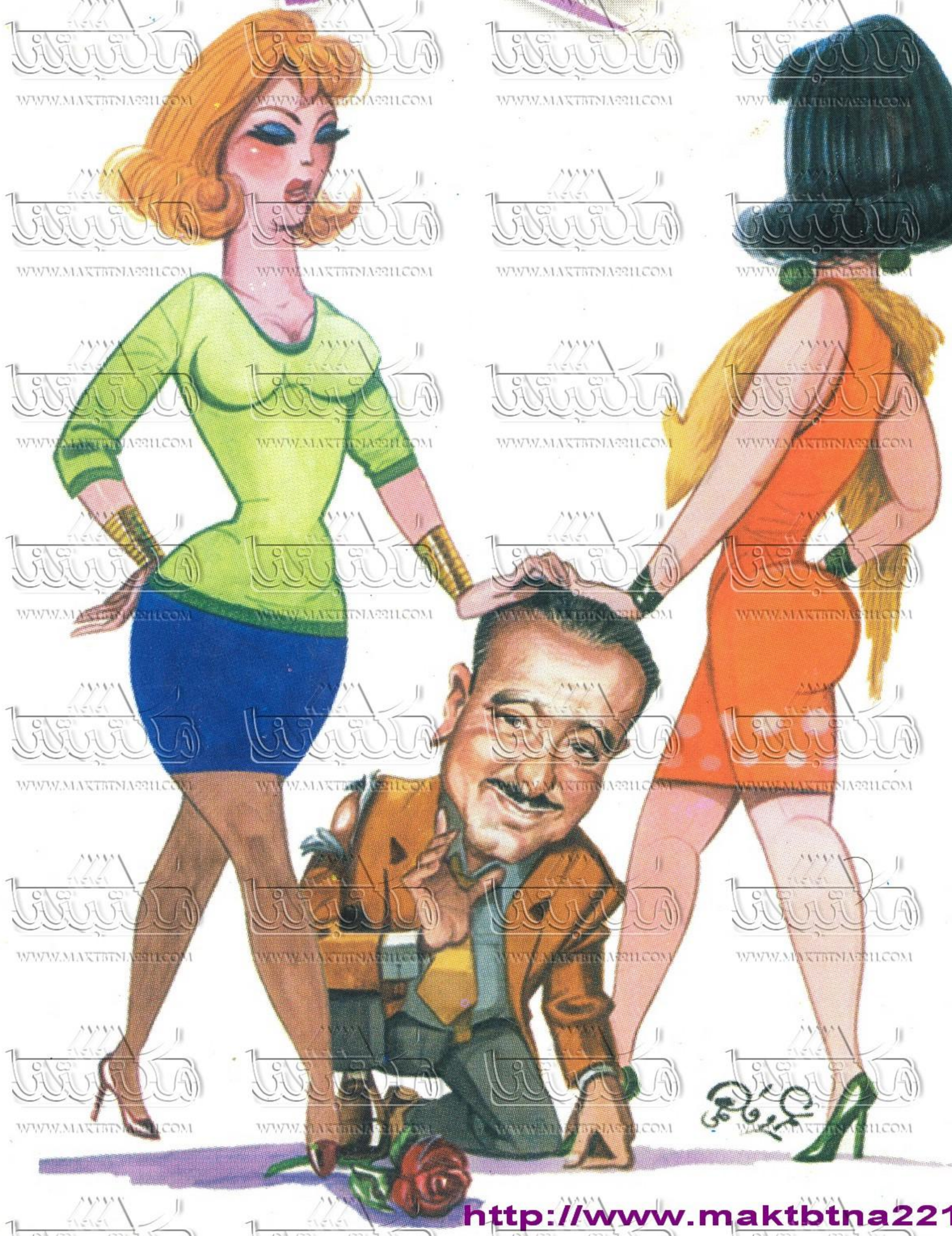

Ahmed Mady

الدار المصرية اللبنانية

http://www.maktbtna2211.com/

عسل البنات

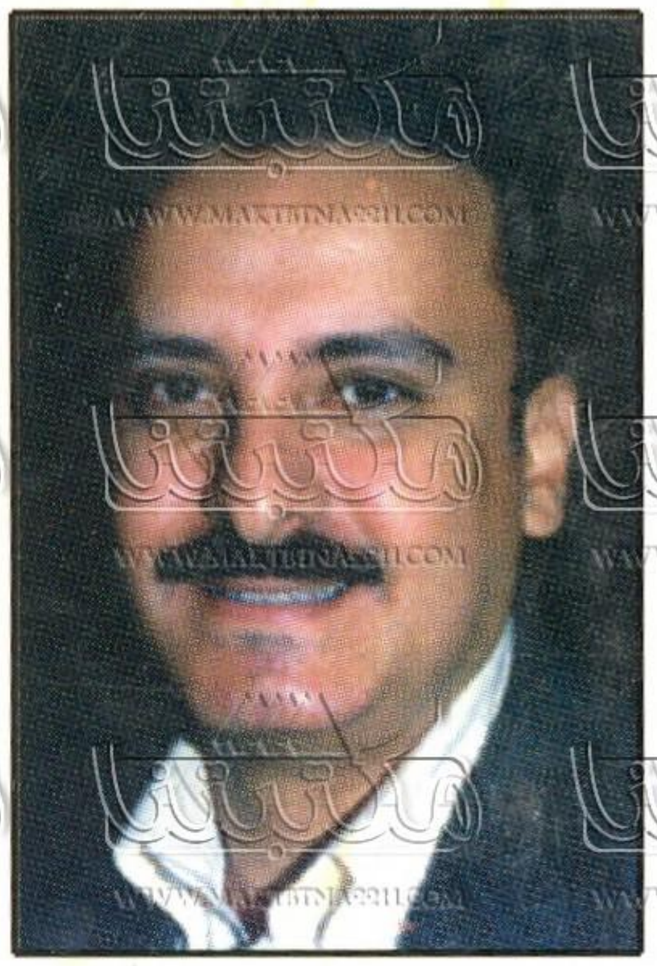

يكشف المؤلف فى "عسل البنات" عن جانب إبداعى جديد لديه ؛ إذ يرسم علاقة التواؤم والتواصل بين الجنسين فى معزوفة الحياة..

إن "عسل البنات" يترسم ذلك الخيط الدقيق الواعى لماهية إدراك الرجل بوجود المرأة وأهميته فى الحياة.. دون أن يكون مهمشًا أو عابرًا.. بل مؤكدًا بعمق ومحللاً لحقوق وواجبات كل طرف نحو الآخر.. كيف يمكن لكل منهما أن يجنى شهد الحياة دون أن تلدغه نحلة سوء التواصل..

الكتاب يصل إلى قمة إنجاز غير مسبوقة.. حينما يطرق منطقة غير مأهوله من العلاقات الإنسانية، يقتحمها المؤلف بوعى وإدراك شديدين لأدواته وقرائه..

● الأستاذ يوسف معاطى كاتب ساخر يعرفه قراء الصحف والمجلات .. ويتمتع بأعماله الكوميدية مشاهدو التليفزيون ورواد السينما والمسرح.

● وقد أصدرنا له من قبل مجموعة من كتبه فى الأدب الساخر، أشهرها: الفن وأهله .. وعفاريت .. وصايع بالوراثة .. وهى كتب متميزة حازت إقبالاً من القراء فى مصر وفى البلاد العربية.

● ومن أشهر مسرحياته الكوميدية: حب فى التخشيبة .. الجميلة والوحشين .. بوبى جارد .. بودى جارد .. بهلول فى استامبول .. لألألأ بلاش كده .. وهى مسرحيات ناجحة قام ببطولتها كبار نجوم الكوميديا.

● كما كتب العديد من قصص وسيناريوهات الأفلام السينمائية الكوميدية أشهرها: الواد محروس بتاع الوزير .. يا تحب يا تقب .. حانحب ونقب.

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
16

6 222006 319953

الدار المصرية اللبنانية

Thurs.
5/7/2012
RIYADH
KSA

كتابنا القادم

خيوط النجاح في الحياة

عبد الرحمن

how to success in life

الدكتور

عادل صادق

أستاذ الطب النفسي

عسل البنات

يوسف معاطي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

العسل نوعان... أبيض... وأسود...

الأول طبعًا... فيه شفاء للناس... ويجلى الزور... ولا يحتاج إلى دعاية فكلنا ننصح بعضنا بتلك الجملة المأثورة... خد لك ملعقة عسل ع الصبح تبأه فلة... ولكن... خد بالك... وإنت تمد يدك لخلية النحل... لتقطف لك قطفة... فلن تسلم من اللدغ... أما إذا كنت من النوع الذى يأخذ له لحسه يومية من غداء ملكات النحل... فأنت... بالتأكيد... لست من النوع الذى يقرأ هذا الكتاب... طبعًا مش فاضى ياباشا...

أما الثانى... فهو الأسود ... ومصدره الأساسى قصب السكر... وهو المورد الأساسى برضه لمرضى السكر «مثلى»... وهو مرتبط لسبب لا أعلمه حتى الآن... بالطحينة... فإذا كان بجوارهما فطيرة مشلتتة معتبرة بالسمن البلدى... فأنت أمام وجبة

متكاملة العناصر من الكوليسترول والدهون الثلاثية... وإذا كنت تعزمنى عليها فأنا من حقى أن اعتبر عزومتك هذه شروعًا فى قتل... وأروح أعمل محضر...

أما العسل الذى أكلمكم عنه... فهو عسل ثالث... فبعض الناس حينما يتكلمون تحس أن العسل يسيل على شفاههم من حلاوة الكلام... فإذا كانت المتكلمة بنت جميلة... فأرجوك تمالك أعصابك... وتذكر أن الذكور فى الخلية يلقون حتفهم جميعًا وهم يطيرون فى هبل وحماقة كبرى فى طيران الزفاف الشهير خلف ملكة الخلية... إلى أن يتبقى أقوى الذكور فى النهاية... طبعًا أنت تتصور الآن أنه أنت... ولكن... اصبر قليلاً فبعد أن يحدث التلاقح... تقوم الست هانم ـ الملكة ـ بذبحه وإلقاء أشلائه فى الخلية... هل فهمت ياعزيزى؟!... أدينا بنتكلم فى المدارى أهه... ها هو أمامك... عسل البنات... أقدمه لك... بعد أن نصحتك... اقرأ كما تريد ولكن إياك والتهور...

والبنات نوعان... نوع أنت تعرفه جيدًا ياعزيزى القارئ... بل وتستطيع أن تؤلف مجلدات فيهن... واعترف لك بتفوقك عليًّا فى هذا المجال ولا داعى للخوض فيه حيث إننى متزوج وأعول بنتًا تعتقد أنها هى التى أنجبتنى... ولقد بدأت حياتى الزوجية بهذا

القسم الذى يقسمه كل زوج... "والنعمة الشريفة ما عرفت أى بنت لحد ما قابلتك"... ولذا فالبنات اللاتى أقدمهن لك فى هذا الكتاب... هن بنات أفكارى وهذا هو الشىء المؤنث الوحيد المسموح لى بتعاطيه أو بتداوله...

إذًا... لا العسل الذى أقدمه هو العسل الذى تريده... ولا البنات اللاتى أقدمهن هن البنات اللاتى ترغب فيهن... ولكنى...يا أخى عفيتك "بعسلى" من اللدغ والقرص والكوليسترول وتصلب الشرايين ومرض السكر وكل الآثار الجانبية للعسل الذى تعرفه... وعفيتك "ببناتى" أيضًا من أى حركة طائشة من بتوعك، قد تؤدى بك إلى علقة محترمة أو نائمًا على البورش فى حالة ما إذا كانت البنات من النوع إللى فى بالك...

يوسف معاطى

قال نابليون إذا أردت أن تعرف رقى كل أمة.. فانظر إلى نسائها وقال نابليون برضه.. المرأة الجميلة بتبهج العيون والمرأة الصالحة بتبهج القلب الأولى حلية.. والثانية كنز..

وقال نابليون.. وبعدين بأه.. إحنا ح نقضيها وقال نابليون ولاّإيه..؟ الواقع إن مقولات نابليون فى المرأة لو فتحنا فيها لظللت عدة أسابيع أرصها لكم ولن تنتهى.. وأنا أتعجب فى الحقيقة من رجل عسكرى وقائد لاشك فى عبقريته الحربية أنه وجد كل هذا الوقت الذى قال فيه كل هذا عن المرأة.. فأنت تشعر من فرط اهتمامه بها.. أنه صاحب نايت كلوب أو بيوتى سنتر أو فاتح كوافير.. وأتصور أن كل الذين قضوا حياتهم فى غمار الحرب أو فى غياهب السجون كان عندهم نزوع غريب واهتمام استثنائى بالمرأة.. أما أمثالنا الذى قضوها مدارس مشتركة وكليات ونوادى فكانت نظرتهم للمرأة أقل اهتماما.. وأقل عمقا.

وأذكر وأنا مجند فى الجيش حيث الصحراء القاحلة واللبس الميرى الكاكى وكل من حولك رجال وبنادق ودبابات.. أننى شعرت فى تلك الفترة بحنين غريب نحو المرأة.. أى امرأة.. وهناك بعيدا جدا.. كان إعلان معلقًا فى الطريق الصحراوى الذى يبعد نصف كيلو عن القشلاق.. إعلانا لمعجون أسنان.. كانت به صورة لواحدة فاتحة بقها وأسنانها ناصعة البياض تلمع من بعيد وإن حالت المسافة بينى وبينها أن أرى ملامحها جيدا، ولكن مع ذلك.. وقعت فى حبها..

أرجوكم لا تسخروا منى.. فعلا.. أحببتها وكنت أشعر أحيانا أنها تبتسم لى.. وكنت أبادلها الابتسامة طبعًا إلى أن أخذت تصريح أجازة وجريت خارج الوحدة لكى ألتقى بها.. ولكن ياللمفاجأة ما أن اقتربت من الأحلام ورأيتها.. كانت بشعة تتناثر فى وجهها الحبوب والبثور.. وكان إعلان كريم لحب الشباب..

وعلمتنى هذه التجربة.. أن المرأة طالما هى بعيدة المنال محتجبة.. صعبة.. ألهبت حواس وخيال الرجل، ولذا يعانى شباب هذا الجيل من افتقاد الحب الساخن والرومانسية التى كنا نسمع عنها قديما.. وعليه فخروج المرأة للحياة والعمل أكسبها أشياء عظيمة

لاشك فيها، ولكنها خسرت شيئا صغيرا واحدا.. أعتقد أنه غاية فى الأهمية..

وقديما فى الصعيد كانت المرأة إذا مرضت لا يحضر زوجها أو أبوها طبيبا ليكشف عليها، فكانوا يفضلون أن يتركوها تموت على ألا يرى جسدها راجل غريب.. أما العائلات المبسوطة فى الصعيد.. فكانوا يسمحون للطبيب أن يكشف عليها على أن يموت الطبيب بعد الكشف وتحديد العلاج بعيار طائش.. وحينما عرض محمد على باشا على الأزهر أن ينشىء قسما للفتيات لكى يتعلمن الطب والتمريض.. رفض الأزهر الاقتراح بشدة.. فكانوا يرون أن تعليم المرأة.. حرام.

وذات يوم دعا الباشا شيوخ الأزهر إلى مأدبة عشاء فى القلعة وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث دخل أحد العبيد وأسرّ فى أذن الوالى شيئا.. ومال الوالى على من بجواره وأسر الرسالة نفسها حتى بلغت الرسالة مسامع شيخ الأزهر فارتاع وجزع؛ فقد كان فحوى الرسالة أن زوجته قد لدغها عقرب فى فخذها، ولابد أن يسعفها الطبيب وإلاّ سرى السم فى سائر جسمها.. وكان من العار أن يسمح لطبيب بمجرد الكشف الظاهرى على امرأة.. فما بالك ولدغة العقرب فى فخذ امرأة شيخ الأزهر..

وقال محمد على باشا.. أن طبيبه الخاص «كلوت بك» على استعداد لإسعافها إذا وافق الشيخ.. وتردد الشيخ قليلا ثم سلم أمره لله ووافق أخيرا، وانتهز محمد على الفرصة وقال لشيخ الأزهر.. ألم يكن من الأفضل والأكرم لنا أن تتولى امرأة مدربة على الأعمال الطبية إسعاف زوجة فضيلة الأستاذ الأكبر.. وهز الشيوخ رؤوسهم وقالوا.. نعم يا باشا هنا ضحك الوالى وقال لشيخ الأزهر.. لا تجزع يا فضيلة الشيخ.. زوجتكم بخير.. وأمر كلوت بك أن ينفذ الفكرة..

وخرجت المرأة من خلف الحجاب.. وصارت طبيبة ووزيرة وأديبة.. وضابطة.. وغدا.. قاضية.. وربما رأست وزارة أيضا.. ولكن يظل هذا الشيء الصغير الذى أشرت إليه فى مقالى.. عقدة لم تستطع المرأة أن تحلها بعد..

متى تتذكر حبيبتك؟! لا تعمل مثل فريد الأطرش وتقول لى.. على بالى على بالى حبك دايمًا على بالى.. فلا شك أن فريد كان عاشقًا "فاضى" متفرغًا لعشقه لا يشارك فى الانتخابات، ولا يذهب إلى مصلحة الضرائب ولا ينحرق دمه مليون مرة فى اليوم مثلنا.. فهو عاشق على قلبه مراوح ومسقَّع بطيخة وقاعد فى التكييف ومعندوش مشاكل، فلماذا لا يتذكر حبيبته عمَّال على بطَّال وقد تبارى الشعراء فى تذكر الحبيبة فى مواقف عجيبة تدل على أنه (العاشق يعنى) كان (بيقرَّع) عليها وعلينا..

ويتذكر عنترة بن شداد عشيقته وهو فى موقف لا يحسد عليه.. فى وسط المعركة والرماح نازلة ترف.. وواحد منهم معدى جنب عينه كان ح يطيرها.. ويبقى بعدها الأعشى مش عنترة.. والسيوف رايحة جاية.. يعنى مش وقته خالص.. ولكنه يقول:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل

منى وبيض الهند تقطر من دمى

فـــوددت تقبيـــل السيـــوف لأنـــهـا

لمعـــت كبـــارق ثـغـــرك المتبســـم

هل رأيتم بالله عليكم جنونًا وعبطًا أكثر من هذا.. واحد داخل عليه بالسيف.. يقوم عنترة يقول له إيدك أبوسها؟!

وهذا بالطبع شـجع شاعـرًا آخـر، اسـمه «الرشـيق»، كـان عـلى ظهر سفينة والبحـر هـاج وتلاطمـت الأمـواج وسقطت الصـوارى عـلى رؤوس البحارة.. وفى وسط هذه الضجة والصراخ.. قال إيه.. شاعرنا الرشيق قاعد على جنب وعايش مع نفسه يتذكر الحبيبة..

ولقد ذكرتك فى السفينة والردى

مـتـوقـع بتـلاطـم الأمـواج

وعـلت لأصحاب السفينة ضجة

وأنـا وذكـــرك فـى ألذ تناجى

يا دى المعر اللى فى الشعراء!! الرشيق ح يعمل لنا فيها تيتانك.. يا عم نُطْ..

وإذا كان الرشيق فعلها بحراوى.. فالشاعر الآخر ـ الظفراوى ـ فضل أن يتذكرها صحراوى.. حينما تاه فى الصحراء ونفد الماء وظهر السراب فى الأفق وبدأ شاعرنا يلوِّش بأه.. وبدلاً من أن يكتب قصيدة فى زجاجة كازوزة ساقعة شوية فى الحر والعطش اللى هوه فيه.. يكتب لحبيبته ويقول..

إنى لأذكركم وقد بلغ الظمأ

منى فأشرق بالزلال البارد

وأقول ليت أحبتى عاينتهم

قبل الممات ولو بيوم واحد

ويعود أبو الحسن الوزير الشاعر ليتذكر حبيبته عند الموت عملاً بالقول الشائع.. اذكروا محاسن موتاكم والشىء الذى يسعده يرحمه الله ويغفر له بأه.. أن حبيبته أكيد ح تروح الجنازة..

ولقد ذكرتك عند آخر نظرة

منى لقومى والحمام مهددى

فبكى الجميع وكنت أبسم بينهم

أملاً بأنك حول نعشى فى الغد

وكما ترون الصورة.. الكل يبكى ويولول عليه.. وهو سعيد فرحان لأن حبيبة القلب ح تيجى تعمل الواجب.. وأنا لا أدرى بصراحة ما الذى يؤكد له أنها ح تيجى العزاء؟! وأنا أؤكد بأه.. أنها ما راحتش عشان كان عندها ضيوف.

أما شاعرنا الآخر الذى تذكر حبيبته فى موقف أبلغ وأصعب من كل ما سبق فيقول..

ولقد ذكرتك والحمار مُعاندى

فوق الشريط وقد أتى الوابور

يا عينى: طالع هو بالعربية الكارو يستفتح، وجه الحمار على قضيب القطار وحرن.. تربس فى الأرض.. والقطر جاى.. يقوم شاعرنا (العربجى) بدلا من أن يلسعه واحدة على قفاه عشان اليوم يعدى على خير راح شارد وسرح فى حبيبته.. قد إيه لطيفة؟ قد إيه رقيقة؟! يا عينى على جمالها!!

والقطار جاى عمال يصفر.. وأخونا ولا هوه هنا.. عايش فى مَلكُوت تانى.. بس الحمد لله.. يقال إن الحمار قد نجا بأعجوبة.

وأخيرًا فهؤلاء الشعراء أوقعونا فى مأزق، فصارت المرأة تطالب الرجل بأن يتذكرها فى أحلك الظروف وأصعبها.. وهذا لا يحدث بالطبع على مستوى الواقع، فحينما حدث الزلزال الرهيب فى ٩٢ أتهمتنا زوجاتنا جميعًا أننا أنذال، وسمعتها تصرخ فى صديقى المسكين قائلة.. ده إنت ساعة الزلزال إللى ما قولتلى كلمة حلوة تشجعنى بيها. وأخذت ديلك فى أسنانك وقلت يافكيك.. دى آمال صاحبتى يوم شقتهم ما ولعت جوزها ما بطلش.. خلى بالك يا آمال.. باحبك يا آمال.. حاسبى على جمالك يا آمال باموت فيكى يا آمال.

ثم أطرقت فى حزن وقالت ياللا.. الناس الكويسة عمرها قصير.. وهكذا عرفت مصير جوز آمال.. قلت لها ياعزيزتى.. نحن نتذكركن كثيراً ولكن أحيانًا الظروف.. فقاطعتنى قائلة.. يمكن قبل الجواز.. إنما بعد الجواز؛ مرات الواحد فيكوا ولا تيجى على باله.. إنت مش شاعر!! قلت لها أحيانًا.. فقالت فى تحد..

بذمتك كتبت حاجة فى مراتك بعد الجواز؟! قلت لها وأنا أنفى التهمة بشدة.. حصل.. كتبت.. قالت.. سمعنى.. قلت لها..

ولقد ذكرتك والمرتب فى يدى

فى أول الشهر الكئيب يضيع

فوددت تقبيل الفلوس لأنها

طارت تؤكد أننا سنصيع..

لم يترك العشاق فيمتو حتة فى المرأة التى عشقوها لم يعبروا عنها.. فكان العاشق يأخذ منحة تفرغ أجازة دون مرتب ويظل يراقب حبيبته ويكتب، وفى عيون النساء فقط كتبوا أبياتا من الشعر لو جمعت لملأت مجلدات، وفى الثغور أيضا وفى الخدود وفى الشعر الطويل والقصير، ولم ينس الشاعر المتفرغ طبعا النهود والإعجاز والسيقان.. بل كل حتة فى المرأة وكأنه كان يعمل لها تشيك أب لا ينقصه سوى تحليل دم وأشعة مقطعية، ومن أكثر الأشياء التى جذبت العاشق إلى محبوبته مشيتها.. هى تمشى من هنا وهو دماغه تمشى وقلبه يمشى وبطنه تمشى.

وقبل أن يطلق محمد رشدى صرخته المدوية ما تبطل تمشى بحنية ليقوم زلزال.. لم يكن ذلك سوى أصداء لأصوات الماضى البعيد لعشاق تعذبوا وصاروا أسرى لمشية حبيباتهم.. ويصف أحدهم مشية حبيبته بقوله

وكأن مشيتها من بيت جارتها

مشى السحابة لا ريث ولا عجل

وآخر يصف حبيبته أيضا فيقول: .

لو أطلقت لمشت نحوى على قدم

تكـاد مِـن رقـة فـى المشـى تنفطـر

وتعلق العشاق بمشية المرأة تعلقا غريبا، وليس له أسباب سوى أنهم خلصوا على كل حاجة، فصار أى شىء يبدو منها محط إعجاب وتهويل.. يعنى إيه واحدة ماشية تعمل فينا كل ده؟.. قلت هذا الحديث ونحن جالسون على الرصيف، حينما مرت فتاة تتخاطر فى مشيتها وترمقنا بعينيها لترى أثر المشية علينا شغال ولا مش شغال، وحينما أدركت أنه مش شغال وتجاوزتنا ببضعة خطوات غيرت من مشيتها فجأة، فلم يعد هناك داع للشو طالما لا يوجد متفرجون..

وفى باريس كانت سرينة البوليس تدق فى شارع الشانزلزيه، وتقول إن امرأة عارية تمشى فى شارع شارل ديجول كما تؤكد ألا يذهب الجمهور إلى هناك ولم يحدث طبعا.. أمم كانت تملأ شارع ديجول وربما لو كان شارل ديجول نفسه الذى يمشى فى الشارع ما ذهب هذا العدد المهول.. لا أرى أى عبقرية فى مشية المرأة.. لازلت لا أرى داعيا لهذا الانتباه غير العادى لامرأة تتمشى أمامك. قـال لـى صديقـى نجيـب متـع نظـرك يا أخـى شـايف ماشـية إزاى

يا روحى.. كان ثوبها الملفوف على جسمها ضيقا جدا لدرجة أننا كنا نتنفس لصعوبة واستدارت الماشية الفاتنة بوجهها نحونا ويا حفيظ.. خسارة فيها المشية.. وخسارة فيها البصة يا شيخة إمشى يا شيخه!!

وارتبطت مشية المرأة بسلوكها.. فنقول عن إحداهن إن مشيها وحش أو مشيها بطال، ونعنى بهذا تصرفاتها وسلوكها، وهناك تعبير مجازى عجيب حينما نقول دى ماشيه على حل شعرها. وحينما نريد أن نعبر عن علاقة بين واحد وواحدة نقول أصله كان ماشى معاها.. وهل المشى جريمة يا ناس.. لابد وأن علاقتهما تعدت مرحلة المشى.. أكيد قعد معاها ووقف معاها.. ولكن التعبير يقتصر على المشى فقط، وعلى العكس فالمشى عند الرجال يعنى أشياء جميلة؛ فحين نقول دى ماشية معاه.. يعنى إن ظروفه فل الفل.. وإذا سألت أحدهم عامل إيه.. يقول ماشى.. أى إن الأمور على ما يرام. وفى تصورى أن المشى هو أحسن يكون فيها الإنسان ولذا فهو يريد للأحوال أن تكون ماشية والظروف الاقتصادية ماشية والأمور العاطفية ماشية.

والحقيقة أن حياة أى رجل تظل ماشية ولا تتوقف قط إلى أن يرى امرأة جميلة، ويحكى أنه حينما كسدت تجارة الكتب فى كندا، عمد صاحب مكتبة إلى حيلة مبتكرة للإعلان فبدلاً من أن يملأ

الواجهة بالكتب، نصب سريرا تتمدد فيه فتاة جميلة وتقرأ كتابا فى يدها، وبعدها صار الإقبال على المكتبة بالضرب وتجمهر الناس أمام المكتبة.. وإلى صاحب هذه المكتبة ترجع على ما يبدو ثقافة الشعب الكندى الشقيق، والواقع أننا نبدأ حياتنا الزوجية بالمشى وفترة الخطوبه هى فترة المشى الأولى والتى اعتبرها تسخين ونعتبر الزفة التى يمشى فيها العريس متأبطا ذراع عروسه هى أول مشوار يقطعانه كزوجين.. وترتدى العروس فى الزفة فستانها الأبيض علامة على الفرح والسرور، بينما يرتدى العريس غالبا بدلة سوداء والرمز هنا لا يحتاج إلى تفسير.

أما أولئك الذين فعلوا مثلى، وارتدوا جاكت أبيض على بنطلون أسود وبابيون.. فهذا هو لبس الجرسونات كما تعلمون، والرمز هنا أنك ستبدأ حياتك خادما حتى النهاية ومنذ الزفة..

المشية الأولى فى حياتى العائلية .. وهكذا بدأت رحلتى مع المشى، وحينما صارت المدام «حامل».. وكان يجب أن تمشى وممنوع دستوريا أن تمشى امرأة حامل دون زوجها.. ووجدت نفسى أمشى مرة ثانية وحينما جاءت ابنتى إلى الدنيا كان يجب أن تمشى ومن الذى يمشى معها؟. أنا طبعا، وكانت مشيتى الثالثة. وحينما مرضت بالسكر قال لى الطبيب فى ضيق ماهو إنتَ لازم تمشى، وأيقنت بعدها أنى سأقطع البقية الباقية لى من عمرى ماشيا..

بعد كل السنوات التى مرت يا أصدقائى، لاأزال عاجزا عن فهم روح المرح لدى المرأة، فالمرأة إما أن تضحك فى وقت غير مناسب أو على نكتة سخيفة أو لاتضحك على الإطلاق..

أعرف سيدة ظريفة تقول بعد انتهائى من إلقاء نكتة رائعة.. هه، وبعد كده حصل إيه؟! وأخرى بمجرد ما أن أبدأ فى إلقاء النكتة، تظل تضحك ضحكا متواصلا حتى إذا بلغت النكتة ذروتها تكف عن الضحك، وتسألنى.. هو إنت غيرت الموبايل؟ وأخرى تنفجر فى الضحك مع المتفرجين فى الجلسة.. وتقول وهى تكاد تموت من الضحك.. هوه قال إيه!!

وأخرى.. تظن دائما أن نكاتى كلها أبيحة.. فقبل أن أقول مرة واحدة تشير لى بيدها قائلة لأ.. نكت خارجة لأ.. ولأننى لم يكن فى نيتى أن أقول نكتة خارجة، فلاشك أنها كان فى نيتها أن تسمع نكتة خارجة..

والمرأة تتصور أن الضحك حالة لا يجب أن يكون

لها سبب.. وهناك نساء فِشِّتها عايمة على طول.. تقول لها إزيك.. ترد.. هئ هئ كويسة.. تسألها خسيتى شوية؟! تقول هئ هئ يعنى.. فإذا سألتها بتضحكى على إيه.. تضحك وتقول هئ هئ أصله بيضحكنى.

ذات ليلة عدت إلى بيتى وبمجرد دخولى من الباب، قلت لزوجتى.. اسمعى دى يا حبيبتى.. نكتة فظيعة.. قالت باسمة.. قول.. بس اخلع الجزمة بره ما تبهدلش البيت.. خلعت الجزمة وأنا أحاول الاحتفاظ بمرحى.. وقلت لها.. مرة واحد كان بيقعد كل يوم فى مطعم وحاطط ورا ودنه عود كرفس، قالت.. ما تنساش تغسل إيديك ووشك.. قلت لها غاضبا.. ح تسمعى النكتة ولالأ.. قالت سامعاك واللهى.. واحد حاطط ورا ودنه عود كرفس.. وأكملت النكتة قائلا.. واحد بأه كان بيراقبه، وفوجئ أنه حاطط المرة دى ورا ودنه بصلة.. فتقدم منه بفضول وسأله.. إيه يا عم أمال فين الكرفس، فقال له الشاب.. مطعم زبالة معندهمش كرفس، وما أن فرغت من إلقاء النكتة سألتنى زوجتى بهدوء وهى تطلى أظافرها.. ولماذا لم يكن عندهم كرفس؟ ثم أضافت فى شرود.. فكرتنى.. دى ريهام صاحبتى وجوزها

ح يتعشوا عندنا النهاردة وطالبين شوربة خضار ودوخت على الكرفس مالقيتوش..

فى المساء جاءت ريهام وزوجها وحكيت لهما النكتة مرة ثانية.. فانفجر زوجها ضاحكا وقاللى حلوة.. كَفَّك.. أما ريهام فقد علقت قائلة.. صحيح مفيش كرفس فى السوق خالص.

يبدو أن المرأة لا تسلم نفسها للمرح الخالص فورا كما يفعل الرجل.. إن الرجل قد يوقف مؤتمرا للأعمال.. أو خطبة سياسية ليلقى نكتة، بينما لا تصغى المرأة للنكتة إلا عندما تكون قد فرغت من إعداد الطعام واطمأنت على العيال.. ولفت شعرها.. ووضعت كريمات الوش، وبعدها يمكن أن تعيرك جزءا صغيرا من ذهنها لسماع نكتة..

وأذكر أننى قلت لزوجتى ذات مرة هل سمعتى نكتة الرجلين العجوزين اللذين التقيا فى المساء، قال أحدهما للآخر.. لقد أحزننى ياصديقى أن أسمع أنك دفنت زوجتك هذا الصباح، فأجابه الآخر.. نعم.. لقد كنت مضطرا لذلك فقد كانت ميتة كما تعلم.. ونظرت إلى زوجتى التى كانت ترتب دولاب ابنتى، فوجدت على وجهها التعبير نفسه الذى كان عليه منذ بدأت فى إلقاء

النكتة.. فقلت لها.. إيه.. مالك.. النكتة خلصت.. قالت زوجتى سمعتها. ولكن ما سبب موت الزوجة؟ فقلت لها فى غيظ ركزى معايا.. بقولك اثنين عواجيز واحد بيقول للثانى.. فقاطعتنى قائلة.. لقد فهمت هذا الجزء من النكتة.. لماذا ترفع صوتك هكذا.. هـ تتنرفز.. ما تقولش نكت.

والمرأة تعتبر الرجل مخلوقا مضحكا فى حد ذاته دون أن يلقى نكاتا.. لقد رأيت نساء يستغرقن فى ضحك هيستيرى، عندما تحكى إحداهن للأخرى كيف يشترى زوجها طلبات البيت من السوق وكم يستغفله البائعون..

وأخرى تحكى حينما احترقت يداه، وهو يخرج صينية البطاطس من الفرن وقعد يصوِّت.. أما زوجتى.. فهى تنفجر فى ضحك لا تقوى علي أن تمنعه إذا أنا اتكعبلت ووقعت على الأرض.. أو أخذت هُضْر محترم.. أو أخذت السلم كله كر ووقعت على ظهرى، فكل هذه الأشياء بالنسبة لها كوميدية جدا..

والشىء الذى يغيظنى حينما تجتمع زوجتى وصديقاتها، ثم تخفض إحداهن صوتها لدرجة الهمس وإذا بالأخريات

ينفجرن فى عاصفة من الضحك.. هذا يفرسنى جدا.. ولولا ثقتى بنفسى لاعتقدت أنهم يضحكون عليَّ أنا شخصيا.. على أننى سأكتشف يوما ما بطريقة ما تلك الأشياء الهامسة التى تضحك المرأة.

الكسوف.. يبدو أنه صار مجرد ظاهرة كونية طبيعية.. لا تمت لبنى آدم بصلة، وكان كسوف المرأة من أجمل الظواهر الطبيعية التى تؤدى على الفور إلى خسوف الرجل واستسلامه تماما لها..

ولم يرصد علماء الجيولوجيا فى السنوات الأخيرة حالة كسوف امرأة واحدة، وبعضهم يرجع ذلك إلى ثقب الأوزون والبعض الآخر يرجعه إلى انتشار شبكات الموبايل والإنترنت، ويقال إن الفتاة التى كانت قديما تستقبل من جاء ليخطبها كانت بمجرد ما أن تدخل أوضة الصالون وتراه تلقى بصينية الشربات، وتجرى إلى الداخل وينفجر الجميع فى الضحك.. كان هروبها هذا من أمامه، ليس لأنها لا سمح الله شافت قرد قدامها أو لأنها رافضاك ولا حاجة.. بالعكس إن هذا معناه أنها قبلت الزواج منك حيث كان الكسوف علامة الرضا..

وكانت الأم ليلة زفاف ابنتها تظل تنهى فى قلبها، وهى تحاول أن تشرح لها على قدر خبرتها طبعًا أن كل ما كان ممنوعا عليها قبل ذلك، وكل التحذيرات التى

ظلت لسنوات عديدة تلقنها إياها. لم تعد مرفوضة.. بالعكس صارت مطلوبة ومرغوبة ومؤيدة من الجميع..

وتتذكر العروس المسكينة يوم أن حاول زميلها فى الكلية أن يمسك يدها.. يدها فقط.. وفرت من أمامه كغزالة مذعورة، وحينما حكت لأمها عن هذا المصاب الأليم ما كان من أمها إلا أن جابتها من شعرها ومسحت بيها البلاط، وها هى أمها الآن تحرضها على ما هو أكثر من ذلك..

ويحكى لنا آبلؤنا عن زوجاتهم زمان.. فيقول لى أحدهم أنه حينما هم بتقبيلها ليلة الدخلة لطشته بالقلم.. وآخر أقسم لى أنها أغلقت على نفسها باب الحجرة بالمفتاح، وكان كل ما فعله ليلتها بعد جهد عنيف أنه فتح الباب، وأخرى أخذت تبكى وتتوسل إليه طوال الليل أن يتركها فى حالها، ثم بدأ علماء الاجتماع الله يجازيهم يؤكدون على أهمية الثقافة الجنسية للشباب، وكأن الأجيال التى سبقتنا كلها لم تكتشف هذا الاختراع الجديد الذى هو الجنس..

والسؤال بالبلدى كده.. أمال إحنا جينا إزاى.. إنها الغريزة والفطرة التى وضعها الله فى الإنسان والحيوان على السواء.. هكذا

كما هى.. بعبلها.. فالأسد لا يحتاج كتابا جنسيا ولا فيلما ثقافيا لكى يفعل فعلته، ولا يجلس الأسد مع أشباله فى العرين لكى يعطيهم محاضرة.. أهو كل شبل وشبلة بيكبروا ويشوفوا مصلحتهم.

وحينما يدعو رجال التربية إلى أن يصارح الأباء والأمهات أبناءهم وبناتهم فيما يختص بالشئون الجنسية مغالطة فظيعة، فالواقع أن الأبناء والبنات يعرفون عن هذه الشئون أكثر مما يعرفه الآباء والأمهات، والمسألة أشبه بتعليم سمكة القرموط السباحة..

وقد حكت لى جدتى يرحمها الله أنها ليلة زفافها كانت تلعب فى الشارع السبع طوبات مع العيال.. وداخ جدى السبع دوخات حتى وجدها.. وحملها بين ذراعيه وهى تبكى لأنها كانت كسبانة.. وأخذ جدى يحايلها وأفهمها أنه سيعلمها لعبة جديدة أحلى من السبع طوبات، وكانت اللعبة الجديدة.. بريلّلا بريلّلا بريللليلة.. وكانت ليلة..

وتطورت اللعبة تطورا مذهلا وتغير شكل جدتى.. فهذه الرسومات التى ترسمها الفتيات على الأذرع والبطن والصدر «التاتو»

وهذا الروج الأسود أو الفضى.. وعوجة البق فى استقبال أى كلام تقوله لها، ثم تخرج لسانها بالجنب علامة على اعتراضها على كلامك.. وتلك الألفاظ السوقية الصايعة التى تقولها لك البنت متصورة أن هذا كله يجعلها مختلفة.. روشة.. شعنونة؛ فتلفت الأنظار.. فهى تقبل عليك فى هجوم وجرأة.. تتقدم بصدرها بلا خجل، ثم تجلس فى أى مكان عام وساقاها مفتوحتان، وتنزل لها الشيشة فتتلقفها بفمها وهات يا شد..

وأمام هذا العدوان الأنثوى الأثيم.. كان على الشباب أن يتصرفوا هم أيضا.. فارتدوا الملابس الغامقة والوسخة، وأطلق الواد الروش ذقنه على خفيف.. وحلق رأسه زيرو وكأنه خارج لتوه من سجن أبو زعبل.. وتحولت علاقته بفتاته إلى علاقة بهيمية عنيفة.. يشدها من شعرها.. يزغدها فى كتفها.. لا مجال هنا للنظرات والهمسات واللمسات الرقيقة الحانية.. وعليه لم تعد الحلاوة هى المقياس فى الحكم على الأشياء بالعكس.. الوحاشة أصبحت هى الموضة.. والبجاحة صارت هى آخر موديل.

قابلتها فى البولينج ترتدى بنطلون محزق، وبودى يظهر نصف

البطن معتمدا على صدرها فى شده للأمام.. وانحنت انحناءة مرسومة ومتعمدة، وهى تمسك بالكرة فاتخذت وضعا يعاقب عليه القانون.. وألقتها بمهارة فسقطت كل العساكر بضربة واحدة.. وسقط معهم كل الشباب الواقفين، وكانوا يبحلقون فى الكرة طبعا فرمقتهم بنظرة خبيرة.. ولا حياء لمن تنادى.

عزيزتى المرأة عندى سؤال.. ماذا تعرفين عن الرجل؟!

كل النساء اللاتى فى الدنيا عندهن اعتقاد راسخ أنهن فاهمات للرجال وعاجنينهم وخابزينهم، واستطاعت المرأة أن تروج بعض الإشاعات التى رسمت فى الأذهان وصدقها، الجميع..

ونحن ـ الرجال يعنى ـ أول من صدقها فمثلا يقال إن أجسام الرجال أكمل وأمتن بناء من أجسام النساء ـ وعليه فصار الرجل هو الموكول له أن يشيل المرتبة ويحطها فى الشمس.. وينقل الدولاب ويحرك ترابيزة السفرة.. ويِلْفَع الكرسى على ظهره.. فهو الرجل القوى الذى يتحمل.. أمال نشيل إحنا يا حبيبتى.. خليهم يشيلوا..؟!!

وهذا علميا خطأ كبير.. فالواقع أن الذكور يولدون، وفيهم من عيوب البدن والبنية أكثر من الإناث وأجسامهم أكثر قبولا للخلل، وأقل منها كفاءة فى العمل من الوجهة الكيميائية ولا يفوق جسم الرجل

جسم المرأة إلا فى نمو العضل.. اللى فرحان بيه ده، ويقولون إن النساء أسرع إلى الشيخوخة من الرجال.. وهذا أيضا خطأ.. فجسم الرجل فى الأحوال العادية أسرع إلى الفساد، فهو من الوجهة الحيوية أكبر سنا من امرأة فى مثل سنه.. وأقل مقاومة لأغلب الأمراض، فإذا أضفنا الضغط العصبى والأعباء التى ينوء بها كاهل الرجل.. هكذا بأه رجل جوه ورجل بره..

وقالوا.. إن ذكاء المرأة.. أكثر من ذكاء الرجل.. وهذا أيضا خطأ ربما فى المسائل الميكانيكية والعقلية والحسابية.. الرجل أكثر ذكاء بكثير.. هو أينشتين واحد.. ونيوتن واحد.. أما النساء فهن يتفوقن على الرجل فى اللغات والحفظ والصم وفى المسائل الاجتماغية.. وقالت المرأة إنها الكائن الأكثر عطاءً وأن عاطفتها أكثر جيشانا من الرجل.. سورى..

خمسون بحثا علميا أكدت أن العاطفة عند المرأة معتدلة أكثر منها عند الرجل.. وقيل إن الرجال أقل صبرا لهيجان الأعصاب والهيستريا من النساء. آسف.. حينما قذفت لندن بالقنابل.. كانت حالات هياج الأعصاب بين الذكور من المدنيين أكثر منها بين النساء.. الرجالة بقت تهلوس وتقطع فى شعرها وحاجة فضيحة.. والستات يا أخى ولا هُمَّا هنا..

وحيث حدثت الزلازل الأخيرة فى مصر.. كانت نكبة عند الرجال وكان الرجل يصرخ.. الحقى ياعواطف زلزال.. زلزال استر يا رب.. وعواطف واقفة تضحك.. شوف الراجل وخيبته.. كما أشيع أيضا بعد انتحار كليوباترا.. أن المرأة أشد ميلا للانتحار من الرجل.. إبأه قابلنى.. إن معدل الانتحار بين الذكور خمسة أضعافه بين الإناث، يعنى كل واحدة تنتحر قدامها خمسة.. يمكن عشان الرجالة واخدينها جد شوية.. مش عارف ليه.

ويقال أيضا إن الرجال يحتملون الحر والبرد أكثر من النساء.. وهذا طبعا غير صحيح، فأجسام النساء مبطنة بطبقات من الشحم تؤدى وظائفها الضرورية والكيميائية على أتم وجه.. فالمرأة عبارة عن أنثى زائد جهاز تكييف طبيعى.

ويقال أيضا.. إن الرجال أعمق نوما من النساء.. وهذا أيضا خطأ.. الذكور من الأطفال أكثر قلقا فى نومهم من البنات ولاينامون قدر ما تنام البنات.. تجيب واد ما ينيمكيش الليل.. لو بت ياسعدك يا هناك.. نايمة على طول..

والحقيقة أن الذكور أقل بديهة وبصيرة من البنات.. فالبنات منذ الصغر أكثر ملاحظة للناس وإدراكا من الأولاد، وفى مرحلة البلوغ

تركن الطبيعة شوية هذا الولد الحيلة.. وتتفرغ للبنوتة الأمورة حيث يعتبرها هنا خراط البنات هى شغله الشاغل، ويبدأ فى وضع لمساته عليها فيما يسمى بفوران البنات.. تلك المرحلة التى تبدأ فيها البنت فى إدراك أنها كائن مختلف تماما عن هذا الكائن الوحش الذى يشاركها الحياة.. وأنها لسبب مجهول وغامض هى لا تعلمه.. يجب أن توريه الويل وتطلع.. عينه.

أجمل ما فى الحياة هو الكلام: إنها معجزة الخالق التى حبا بها الإنسان وهى أول منحة آلهية أعطاها الله لسيدنا آدم.. حينما علمه الأسماء كلها، ومشى بين الزهور فى جنة عدن، وظل ينادى كل زهرة باسمها. وأكدت له جميع الأزهار سعادتها بأسمائها.. إلى أن توقفته زهرة صغيرة وديعة تتطلع إليه من خلال سيقان أخواتها.. وسألته.. وأنا اسمى إيه يا سيدى ألا تذكرنى؟! وكان آدم قد نسى اسمها فقال لها. ليكن اسمك «اذكرنى» حتى لا أنساك أبدا.. ولايزال اسمها كذلك بانسيه..

والكلام هو الذى جعل آدم يلتقى بحواء فى الجنة لتؤنسه.. وتأخذ وتدى معاه فى الكلام.. وتواجهه أحيانا بأنها بتشك فيه.. برغم أنهما وحدهما فى الجنة ولا صريخ ابن يومين.. لكنها متعة الكلام والمناغشة...

وعشق الإنسان الكلام فاخترع الأدب.. ونظم الكلام وملأه بالأحاسيس والمشاعر.. فاخترع الشعر ثم لحن هذا الكلام ليصبح أغنية يطرب لها السامعون..

وأجمل أنواع الكلام هو الكلام الذى وراءه كلام.. وأنا أتأمل الصائغ وهو يصف حبات اللؤلؤ أو الألماظ؛ ليصنع عقدا بديعا أراه على صدر امرأة جميلة.. كما أتأمل الشاعر وهو يصف التعبيرات والألفاظ التى تبرق ليصنع منها قصيدة رائعة. يسمعها لامرأة جميلة تحب رجلا آخر غيره بالتأكيد.. أعنى الذى اشترى العقد.

والكلام هو ريموت المشاعر.. كلمة واحدة تجعلك ترقص من الفرحة وتطير فى نشوة وسعادة.. (بحبك) من ثغر فتاة رائعة الحسن.. ثم تتبعها بكلمة واحدة برضه تهبط بك إلى أسفل سافلين من الكدر والغم.. (زى أخويا).

ويحكى أن فلاحين إنجليزيين تقابلا بعد فراق طويل.. فسأل أحدهما الآخر عما كان يعمله فى الأيام الأخيرة.. فلما علم أنه قضاها فى المستشفى، راح يعرب له عن أسفه الشديد. ولكن زميله استأنف الحديث قائلا.. عملت العملية واتجوزت الممرضة يا سيدى اللِّى كانت بتراعينى.. فرد الأول.. يا سيدى باهنيك.. وألف مبروك..

وشد ما كانت دهشته حينما استمر زميله فى حديثه بعد ذلك قائلا.. وتصور بعد ما اتجوزنا اكتشفت أنها كانت متجوزة قبل كده وعندها ست عيال.. هنا اكفهر وجه الآخر.. وقال يا ساتر

يارب.. هارد لك.. دى بلوه سودة كان الله فى عونك على أن زميله واصل الحديث وقال.. هى مريشة مبسوطة عندها فيلا ثلاثة أدوار.. قصر بحمام سباحة.. فبادر الآخر لتهنئته سعيدا.. طيب ياعم.. هنيالك.. طول عمرك محظوظ..

وقبل أن يتم تهنئه أخبره صاحبه.. بأن الفيلا اتحرقت كلها فى حريق هائل منذ أسبوع، فلم يسع صديقه إلا أن عبس بعد أن كان يبتسم، وعاد ليقدم العزاء بدلا من التهنئة..

وكانت دهشته أشد حين قطع صاحبنا كلامه بقوله.. والمدام وأولادها راحوا فى الحريق وورثت أنا الفيلا. هنا لم يدر صاحبنا هل يهنئه أم يعزيه؟!

إذا تأملنا الحوار الدائر بينهما لاكتشفنا أن الكلام هنا أشبه بالطاحونة الضخمة فى الملاهى.. فى ثانية أنت فى القمة.. وفى ثانية أخرى أنت تحت، واخترع الإنسان الكلام الذى يحمل معنيين.. الكلام الموارب.. فاهتزت ثقة الإنسان بالكلام.. فإذا قلت لى سيادتك إنك جاى تقابلنى الساعة ٧.. أقولك ساخرا جاى ولا كلام.. أو أن أصفك بأنك بتاع كلام..

وعرف عن اليابانيين أن كلا منهم لا يثق بغيره.. وحدث أن التقى اثنان من رجال الأعمال فى محطة السكك الحديدية بطوكيو..

فسأل أحدهما الآخر عن البلد التى ينوى السفر إليها. فأجابه قائلا.. إننى ذاهب إلى كوبا وهنا رد عليه الأول يالك من كذاب تقول إنك ذاهب إلى كوبا لكى تجعلنى أعتقد أنك ذاهب إلى أوزاكا ولكن هذه حيلة مكشوفة فقد تحققت أنك ذاهب إلى كوبا..

ولذا أحب أن أصف لكم روشتة عائلية لتفسير الكلام.. فإذا قالت لك زوجتك ليس عندى ملابس.. فمعنى هذا أنه لم يبق لديها سوى ١٤ فستانا للخروج وستة سواريه.. و١٢ طقم كاجوال وثمان بلوزات.. وإذا قالت لك أن بدلتك التى ترتديها أجمل من يوم شرائها.. فهذا يعنى ألا تفكر فى شراء بدلة جديدة لنفسك، وإذا قالت لك يجب أن تقتصد قليلا فى النفقات.. فيجب أن تدرك أنك اشتريت ماكينة حلاقة زيادة.. وإذا قالت لك فى سعادة.. إنها أخيرا وجدت الشىء الذى تبحث عنه، فإنه يجب أن تعلم أن هذا الشىء يخصها وحدها، وأنك أنتْ الذى ستدفع ثمنه.

وإذا قالت لك إن مكانتك الاجتماعية تستغرق كل تفكيرها، فهذا معناه إنك ستشترى لها معطفا من الفراء الثمين تظهر به فى المجتمعات عشان شكلك قدام الناس.. أما إذا قالت لك إنك لم تعد تحبنى.. فاعلم أنكما ستقومان بزيارة قصيرة للجواهرجى فى الليلة نفسها.. وإذا قالت لك لا تكلمنى مرة أخرى فلا تكلمها

إلا بعد عشر دقائق.. أو خمس.. أو بعد دقيقة على أكثر تقدير أو.. كلمها.

قال لى صديقى أنه التقى بها فى حفل صاخب.. ووجدها منعزلة.. وديعة.. صامتة خجول.. فاقترب منها صديقى الوغد بكأس.. وقال.. ألا تشربين أجابت مرسيه عمرى ما دوقتها.. فقدم لها سيجارة فردتها قائلة.. مرسيه مابادخنش.. وبعد قليل دعاها للرقص فأجابت مرسيه.. أنا مابارقصش.. وأخيرا قال لها فى هيام.. اهنئك.. إنتى كاملة من كله مافيكيش عيب واحد.. فابتسمت وردت.. مرسيه لكن عيبى الوحيد إنى.. مابقولش الحق.. وكان كل ما سمعه منها قبل ذلك.. مجرد كلام.

فى دراسة لمركز البحوث الاجتماعية، أكد المتخصصون والباحثون أن ٢٨٪ من الزوجات فى مصر يضربن أزواجهن، وأنا برغم احترامى وثقتى فى نتائج المركز لا أصدق هذه النسبة.. فمن هذا الرجل الذى يعترف أنه اتلسع قفا وهو نازل على السلم، أو أن هذا الورم اللى فى دماغه من آثار كعب حذاء زوجته..

فالرجل المصرى يظل يحتفظ لنفسه بهذه الأسرار العائلية المقدسة.. محتفظا بوضعه كواد «دكر» أمام الناس، مكملا فى قوة المسيرة التى بدأها سى السيد «يحيى شاهين» فى تمشية الزوجات على العجين ما يلخبطوهوش.. وإذا كان لابد له أن يحكى أو بالأحرى يفضفض فليس سوى الجملة الميلودرامية الرائعة يقولها فى شعور مفتعل بالندم.. ماكنتش عاوز أمد إيدى عليها.. بس هيا استفزتنى!! ولا يخبرنا بالطبع أن الجملة معكوسة.. فهو للحق الذى استفزها وهيه اللى مدت إيدها عليه.. وإنما يلمح بعض التلميحات غير المباشرة مثل.. دى عاوزه تعمل

دماغها بدماغى.. هنا نفهم علطول أنه أخذ «روسية محترمة» فى دماغه من المدام.. أو يقول إنها حاطة نقرها من نقره، والجملة هنا تعنى أنها كتفته وألقت به على الأرض وقعدت عليه، ويقول أحيانا.. أنا لا أقبل إلا أن تكون لى الكلمة الأخيرة، وعلمت بعد ذلك أن الكلمة الأخيرة التى قالها «بن.. بن.. ميكروكروم» قبل الإغماء طبعا.

وللكاتب الروسى تشيكوف قصة رائعة اسمها «دموع لا يراها العالم»، وهى تحكى عن زوج أصر أصدقاؤه أن يتعشوا عنده.. وذهبوا معه إلى البيت، واستأذنهم لكى يوقظ المدام لكى تعد العشاء.. وطلع الزوج.. وقامت الزوجة وانهالت ضربا على زوجها المسكين.. جايب لى أصحابك يتسمموا فى النص الليل يا كلب.. وهو يبكى ويتوسل.. وهى تصفعه على وجهه أنا ح أوريك.. ثم تطرحه أرضا وتديله بالشلوت. وهو يقبل قدميها.. وأصدقاؤه بالخارج لا يسمعون شيئا وإنما يحسدونه يقول أحدهم.. لأ.. واد شخصية جامدة فى بيته وكرامة فى منطقته.. إنه يقدر يصحى مراته من النوم عشان تعمل عشا لأصحابه.. يِبْأه واد فاجر وملقط وصايع.

قطع سريع على حجرة النوم لنجد الزوجة تدخن سيجارة وتهز

رجلها فى عصبية والزوج جالسا على الأرض منكسا رأسه فى مَسْكَنة ثم تدفعه بقدمها فى وجهه، وتقول له طيب غور غور انزل لهم.. جتك القرف.. يقبل يديها وقدميها وينزل..

يستقبله الأصدقاء بترحاب شديد كأحد الفاتحين المغاوير.. يابن اللذينة.. إيه الكرامة دى وإيه الرجولة دى.. وتنزل الزوجة وتقول فى صوت ناعم رقيق.. أنا آسفة أصل بابى «تقصد زوجها» ما قاليش إنكوا جايين.. كان نفسى أعمل لكوا عشا مخصوص. حاجة بسيطة بأه.. الموجود، انتوا مش غرب.. يشكرونها.. ويسأله أحدهم.. إيه اللى فى وشك ده.. ده دم.. يرد الزوج.. لأ.. مفيش أصلى اتخبطت فى الدولاب.. وتظل دموعه دموعا سرية.. لا يراها أحد، وعليه إذا كان ٢٨٪ كما تقول الإحصائية من الأزواج اعترفوا بأنهم يضربون من زوجاتهم فأنا لا أطمئن على الإطلاق على البقية الباقية من الذكور.. الذين التزموا الصمت وإذا كانت النصيحة الإلهية للأزواج كى يؤدبوا زوجاتهم اضربوهن واهجروهن فى المضاجع.. فيبدو أن الأزواج عملوا بنصف النصيحة فقط.

يرن جرس التليفون فترد هايدى الصغيرة على تانت ماجو.. هاللو ازَّيك يا تانت.. مامى مشغولة.. أصلها بتضرب بابى فى

الأوضة وقافله عليه.. تأتى ماما مسرعة وتأخذ السماعة من هايدى. آلو يا ماجو.. خلاص قرفت تعبت.. الله يقطع الجواز وسنينه.. تقول ماجو فى رزانة.. اضربيه يا حبيبتى بس ضرب اسكندرانى من اللى يوجع وما يعلمش.. أحسن يطلع متعقد.. أنا كنت باعمل زيك كده وأهوه أدينى دايرة بيه على الدكاتره.. ترد أم هايدى.. أعمل فيه إيه بس؟.. مش عارف مصلحته.. الدوا مش عاوز ياخدُه.. تسألها ماجو.. هو عنده إيه.. تقول أم هايدى.. قلبه ضعيف شوية.. والدورة الدموية عنده عاوزة تتنشط.. بعت جبت له الدوا من بره.. الحباية بأربعين جنيه، والصيدلى يبص لى من فوق لتحت وأنا بأوصيه عالدوا.. فاكرنى عاوزاه عشان حاجة كده ولا كده وأنا وحياتك ياماجو ولا فى دماغى..

ترد ماجو فى ضيق هما الرجالة كلهم كده ما يفكروش غير فى قلة الأدب.. ابقى ابعتيلى كام حباية ياحبيبتى.. تسألها ليه هوه جوزك برضه قلبه ضعيف.. ترد ماجو.. لأ..مش عشان جوزى.. عشانى أنا..

وعليه يا أعزائى فإن دخول المرأة عالم العنف.. والمقصات والبونيات.. سيجعلها عن قريب شئنا أم أبينا تنافس الرجل على ألقابه فى الملاكمةِ والمصارعة الحرة.. فهذه ابنة محمد على كلاى

ملاكمة رهيبة.. وابنة فريزر أيضا التى تتحداها.. وغدا ستتحدى المرأة الرجل فى هذه الألعاب العنيفة.. ولن يقتصر دورها على أن تطلع على الحلبة فى مايوه مثير، وهى تضرب الجونج وتحمل اللافتة.. وإنما ستنزل إلى الحلبة كمنافس عنيد جبار، وسيتغير قانون اللعبة فالرجل ممنوع أن يضرب فوق الحزام.. والمرأة ممنوع أن تضرب تحت الحزام، كما أنه ممنوع منعا باتا الالتحام بين الملاكم والملاكمة على الحلبة.. لسبب بسيط.. إن إحنا مش قاعدين طراطير.

لكى تصبح طبيبا حضرتك.. يجب أن تتخرج فى كلية الطب.. ولكى تصبح ضابطا سيادتك.. لابد وأن تتخرج فى الكلية الحربية.. أما فيما يختص بأن تصبح زوجا جنابك وهذه ويالعجب.. شهادة تحصل عليها فى ثلاث دقائق.. بلا أى دراسة ولا خبرة.. مؤامرة كبرى يشترك فيها عدد كبير من الأشرار، يسمون أنفسهم المعازيم ورجل متدين يسمى نفسه مأذونا وهيصة أفريقية مرعبة يسمونها فرحا، واخترع الناس جملة يكررونها فى مثل هذه المناسبات.. ربنا يتمم بخير..

وفى الجملة إحساس خفى بأن شرا ما يحيط بالموضوع.. والابتسامات الخادعة نفسها التى كانت تحيط بك وأنت طفل صغير.. وهم يأخذونك لكى تتطاهر عند الطبيب، ويخفون عليك الأمر تماما.. هذا بالضبط يحدث لك وأنت شحط كبير مقدم على الزواج وكل الأزواج السابقين الملاعين.. يتعمدون فى غل وحقد أن يدفعوا بك إلى الزواج، لكى تشرب من الكأس.

ولأننى بنى آدم أخلو من كل العقد السالفة الذكر.. فلقد قررت أن أفتح مدرسة للأزواج والمصاريف بسيطة.. لنلتقى يا أخوانى فى القهوة.. والمشاريب عليكوا ولا أشترط زيا معينا للطلبة أعنى العزاب.. وإنما.. حرصا على حياتى.. فأنا مجبر على أن أوقع هذه المرة باسم مستعار. وكأى مدرسة نموذجية محترمة.. سأبدأ بالطابور.. وفى الطابور سيكون النشيد القومى.. أحب عيشة الحرية زى الطيور بين الأغصان.. وبعد النشيد.. القسم.. والقسم هنا يا رجالة هكذا.. أقسم بالله العظيم.. لو مراتى سألتنى جبت الكلام ده منين ألا أذكر اسم كاتب المقال.. ربنا يستر طريقكوا يارب.

كان أحد الشعراء يستعد للزواج.. وقبل موعد زواجه بيوم، زاره صديقه وقال له.. لاحظ أن النهاردة يعد أسعد يوم فى حياتك.. فقال العريس.. ولكن.. ده الفرح بكره وليس النهاردة.. فأجاب الصديق ما أنا عارف.. كان يقصد إن النهاردة آخر أسعد يوم فى حياته طبعا، ولم يفهم الشاعر المشغول ببدلته وبالفرح، المعنى الذى فى بطن القائل.

وتزوج الشاعر، وكانت الزوجة تعمل مدرسة.. ولم تمض أيام حتى صار البيت الجديد.. حريقة.. وذهب الشاعر إلى صديقه

يشكو له وقال وهو يجهش بالبكاء.. أنا.. أنا أنضرب يا فتحى.. أنا أنضرب كل يوم.. وأخذ فتحى يهدئ من روعه، وقال اهدأ ياصديقى.. وكان الشاعر يريه آثار الضرب على يديه وذراعه.. فسأله ولماذا تضربك.. قال الشاعر.. لأننى أتكلم.. فاندهش فتحى وسأله.. هل تضربك لمجرد أنك تتكلم.. فأجاب الشاعر.. لأننى أتكلم دون إذن.. ألم أقل لك.. إنها مدرسة.. هل يعقل أن أرفع صباعى قبل أن أتكلم.. فسأله فتحى غاضبا.. وأهلها ما موقفهم؟ أمها تؤازرها.. وأبوها يساندها.. قال فتحى.. إذهب وإشكوها فى المنطقة التعليمية.. وزير التعليم لا يرضى بهذا أبدا.. روح يا شيخ الهى تجيلها إعارة تاخدها، ودخل صديقهما المتزوج حديثا.. وكان قد اعتاد أيام عزوبيته ألا يعنى بمظهره ولا بملبسه.. ولكنه بدا وقد تغير شأنه.. فقال له فتحى.. أدى الزواج ولا بلاش الشياكة والنضافة دى راجعة لزوجتك بالتأكيد؟ .فأجاب الزوج.. طبعا.. أول حاجة علمتها لى مراتى يوم زفافنا.. الغسيل والنشير والمكوى.. بقيت لهلوبة.

قلت لهم يا أعزائى.. نحن كرجال تنقصنا جميعا الخبرة.. كلنا أُخِذْنا على مِشمِّنا، ولكن إذا عودت زوجتك على شىء.. أى شىء.. فهذه أرض كسبتها.. كلمة واحدة من البداية يجب أن

تضعها على فمها.. حاضر.. وما ينطبق على الصغائر.. ينطبق على عظائم الأمور.. قال أحدنا وهو زوج مستجد.. لقد جربت ذلك ياأستاذنا.. قلت له.. وما النتيجة.. قال قلت لها فى البداية.. لما أقولك على أى حاجة قولى حاضر.. كباية ميه يا مدام.. حاضر.. اعمليلى شاى يا مدام حاضر.. قلت له جميل.. فأجاب: لا، ليس جميلا.. لقد بدأت «حاضر» هذه نفسها تتغير حسب الأداء.. فمرة طلبت منها أن ترفى لى الشراب فقالت حاضر.. حاضر تلك التى تعنى «**استنى**»، ثم طلبت منها أن تخيط لى زرار القميص المقطوع.. فقالت حاضر ولكنها حاضر التى تعنى «**وبعدين معاك**»، ثم حاضر التى تعنى «**أوف..**» ثم فجأة تنمرت ونظرت لى بشراسة وكان بجوارها قصرية زرع.. راحت شيلاها وقايلة: حاضر.. حاضر.. حاضر.. تلات غرز فى جبهتى..

قلت له فى شعور بالذنب.. حاضر.. حاضر.. هشوف الموضوع ده.. حاضر.

* * *

مشكلتنا أننا مباشرون.. والمسألة تحتاج إلى كياسة.. إلى دبلوماسية.

مثلا كلمتك زوجتك وأنت غارق فى عملك.. وقالت.. ياللا تعالى عشان تتغدا.. ماما هنا.. صرخ أحدنا وقال.. هذا ما حدث معى بالضبط، قلت له: وماذا فعلت، قال صرخت فيها، قلت لها أنا عندى شغل ارحمونى وبَاّت خناقة لرب السما قلت له فى حب يا صديقى أنت طيب. الرد المضبوط فى هذه الحالة أن تقفز فرحا حينما تزف إليك هذا الخبر.. معقولة يا حبيبتى.. ماما ح تتغدا عندنا.. مش ممكن.. دى وحشانى قوى.. ثم تسكت وتقول بحزن.. بس.. ستقولك بس إيه.. سترد فى إحباط وّالشغل اللى قدامى ده!! ثم تعود وتقول لها ملعون أبو الشغل ح استقيل.. أنا لا يمكن أضيع فرصة زى دى.. أنا جاى حالا.. هنا بأه سيتغير موقف الزوجة.. وهى التى ستلح عليك أن تبقى فى شغلك.

وهدرت عاصفة من التصفيق والاستحسان من تلاميذى الأزواج المستجدين، بعد عبقرية الإفلات من الموقف السابق.. وبعد أيام أتى لى الزوج.. وقال لى عملت ما أمرتنى به باللِّى.. قلت له وإزاى الحال أجاب فى غيظ: سبت الشغل.. قلت له ثائرا لابد وأنك أنت المخطئ.. لابد وأن تظاهرك برغبتك فى الذهاب إلى البيت كان مكشوفا واضحا، وأى زوجة عندها قرون استشعار.. لقد أحست بحيلتك.. أنت ممثل ردىء وشك للحيط وارفع إيديك فوق.

وعدت إلى تلامذتى وقلت لهم يا إخوانى لا يجب أن يشعر أى منكم أن على رأسه بطحة.. كان لى صديق عنده خادمه فُضَحيَّة.. يرن جرس التليفون فترد.. ثم بأعلى صوتها، وكأنها تسمع كل سكان العمارة يا بيه.. واحدة اسمها صفاء عاوزاك، فتخرج زوجته مذعورة من الحجرة الأخرى، وكأن التتار يدهمون البيت وتصرخ فيه صفاء مين دى بأه؟!

وتبدأ سيمفونية النكد.. ويرن جرس التليفون.. وتجرى الخادمة النذلة، وتصرخ: يا بيه واحدة اسمها عواطف عاوزاك.. وتعلو سيمفونية النكد حتى تبلغ أعلى حركاتها، وضاق الزوج صديقى بالخادمة.. وكاد أن يطردها.. ولكن الزوجة طبعا تمسكت بها وجاء لى، قلت له يا صديقى يجب أن تستقطب الخادمة إلى صفك.. فأى خادمة تنفذ ما تريده منها بجوز جنيهات.. وذهب إليها.. وقال لها يامسعدة إذا اتصل أحد بى تعالى إلى حجرتى.. واهمسى فى أذنى.. لا يجب أن تذيعيها على الملأ.. هكذا، وطبق لها جوز جنيهات.

فى اليوم الثانى طلبته لاطمأن عليه فردت مسعدة.. وقالت لحظة واحدة وذهبت إلى صديقى فى مكتبه، وقالت: يا بيه، قال لها: فيه إيه يا مسعدة، قالت: كلمة كده بينى وبينك، فذهب إليها وزوجته

ترمقه فى شك وهمست مسعدة فى أذنه واحد اسمه يوسف عاوزك.. هنا جن جنونه وصرخ فيها.. ما تعلى صوتك مين اللى اتصل، والملعونة تهمس.. يوسف.. يوسف وجريت الزوجة على التليفون وأمسكت بالسماعة وقالت فى غلظة.. مين، قلت لها: أنا يوسف، قالت، فى شك: ده مش صوت يوسف ولما إنتَ يوسف.. بيخبى ليه.. فيه إيه.

الشىء اللافت للنظر.. أن صديقى هذا ليس له أى علاقات، ولكنه متهم دائما مذعور دائما، وهنا أدركت أن العيب ليس فى زوجته وإنما العيب فيه هوه.. فهو خائن، وإن لم يخن وبصباص وإن لم يبصبص.

أما صديقى الآخر الغارق فى علاقات كثيرة.. فهو يتعامل مع الموقف بصورة هادئة بها كثير من الذكاء.. وحينما صرخت خادمته وقالت يابيه واحدة اسمها هبه عاوزاك.. نظر إلى زوجته فى ضيق، وقال: مش ح نخلص من هبة دى، فسألته الزوجة: مين هبه.. فأجاب بنت غلبانة ظروفها صعبة.. أمها بتعمل عملية وأبوُها ميت.. عاوزانى أساعدها، فقالت الزوجة: طيب ما تساعدها يا حيبيى.. حرام.. فقال لها فى ثقة.. طيب كلِّميها إنتِ.. قوليلها بأه تكلمنى فى المكتب.. أنا دماغى مش رايقة.. وكان

المكتب هو الموعد المضروب بينهما، والذى أكدته زوجته شخصيًا والعباقرة فى هذه المواقف كثيرون وخذ عندك هذا الموقف..

كانت لحظة محرجة بحق.. حينما اقتحمت الزوجة مكتب زوجها المدير العام.. فوجدت سكرتيرته الحسناء جالسة على ركبتيه وأمامها الآلة الكاتبة.. ولكن الزوج لم يرتبك.. لم يتأثر ،وبادر بكل ثقة وثبات بإملاء سكرتيرته هذا الخطاب.. السادة أصحاب مصانع الكراسى.. إنكم لم ترسلواحتى الآن الكراسى المطلوبة، مما يضطرنا أنا وسكرتيرتى للجلوس على مقعد واحد!! ثم أردف لسكرتيرته كَمِّلى يا بنتى.. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.. ولم تتفضل الزوجة بالطبع بقبول فائق الاحترام.

كل شاب يحب فتاته على ضوء الواقع الذى يحيط بها، أما الفتاة فإنها تحب الشاب على ضوء وعوده وآماله فى المستقبل.. فهو تزوجها لأنها أعجبته، وهى تزوجته لأنه يوما ما.. ربما.. يعجبها..

كان يتحدثان عن زوجتيهما، فقال أحدهما فى ضيق.. إنها تتصور أننى مليونير.. كل يوم تطلب منى نقودا كثيرة، فسأله صديقه: وماذا تفعل هى بكل هذه النقود، فأجاب الثانى: لا أعلم يا أخى.. لأننى لا أعطيها شيئا، فقال الآخر أنت المخطئ يجب دائما أن تخير زوجتك فيما يختص بطلباتها.. افعل مثلى.. فى عيد زواجنا الماضى جلست معها وسألتها ماذا تفضلين كهدية لعيد زواجنا.. معطفا من فراء المنك أم نقوم برحلة إلى السويد.. فسأله صديقه وماذا اختارت، أجاب الزوج: اختارت أن تذهب إلى السويد؛ لأنها سمعت أن معاطف الفراء هناك أرخص منها هنا.. قال الآخر.. لا أسمح لى.. أخطر ما

يهدد الحياة الزوجية ذلك الحوار الديمقراطى، الذى يسمح به الزوج فى البيت..

المرأة مثل العالم الثالث لا يصلح معها إلا الحكم الشمولى.. فقد كانت زوجتى فى بداية زواجنا شديدة الارتباط بأمها.. يوم عند أمها ويوم فى البيت، وكان لابد من قرار حاسم.. قلت لها حاجة من اثنين يا تقعدى عند أمك.. يا تقعدى فى بيتك.. فسأله صديقه وماذا فعلت.. قال.. قعدت فى بيتها طبعا.. بس جابت أمها تعيش معانا.

تنهد الآخر فى أسى وقال.. المهم ماتكبتش فى نفسك.. ألم تسمع عن المرأة، التى رفعت دعوى بالطلاق على زوجها فى الإسكندرية؛ لأنها اكتشفت إنه مخاوى يأكل الفحم المشتعل والزجاج والمسامير، ويمشى على الحيط، وكان قد أخفى عنها ذلك وقد أكد محامى الزوج أن هذه القوى الخارقة اكتسبها بعد الزواج؛ لأنه يكبت فى نفسه..

ألم يذهب قيس بن الملوح إلى ليلى فى الخيمة يطلب نارا.. وماكانش معاه حاجة ياخد فيها.. فتناول النار بيديه المسكين.. «ويح قيس تحرقت راحتاه.. فما شعر» وداخوا بيه على قسم الحروق فى قصر العينى..

الرجل حينما تكون بداخله طاقة مخزونة يفعل الأعاجيب.. ألم تسمع عن جمعية الأزواج الطائرين.. قال الآخر: لا، لم أسمع بها.. قال: يرجع تاريخ الجمعية إلى عدة قرون مضت حيث منعت زوجة زوجها من الخروج من البيت، وأغلقت عليه بالمفتاح، وكاد الرجل يجن حتى طرأت على ذهنه فكرة جهنمية.. وقام بإحضار المخدة وأخرج منها الريش، وقام بعمل جناحين، لصق كلا منهما على إحدى ذراعيه وفتح البلكونة وقال.. فرافيرو وطار مثل العصفور الطليق.

قال الآخر: استنى أنا أعرف بقية القصة.. ساح الصمغ وسقط الجناحان.. إنه عباس بن فرناس أول من وضع فكرة اختراع الطائرة.. قال صديقه وهل يدخل مخك يا عزيزى هذا الكلام.. عباس بن فرناس يطير من البلكونة هكذا ليخترع الطيارة.. أم ليهرب من النكد الذى كان يعيش فيه.. هل تريد أن تفهمنى أن كل الرجال الذين نطوا من البلكونات كانوا عباقرة ومخترعين. أنت طيب.. هل تعلم أن أديسون العبقرى الأصم كان يسمع دبة النملة.. ولكنه كان يستعبط حتى يرتاح قليلا من مشاجرات زوجته.. هكذا كان الزوجان يتحدثان فى الشارع..

وإذا بصوت صراخ مهول لرجل يقول.. ارحمينى ياشيخة.. ارحمينى يا شيخة.. ثم يقف على سور البلكونة فى الدور الخامس ويفرد ذراعيه.. ويسقط مرتطما بالأرض بجوارهما.. فقال أحدهما للآخر.. وهو ينظر إلى الجثة.. أعرفك نيوتن.. هكذا اكتشفوا الجاذبية الأرضية!!

كانت فرصة لن تتكرر بلا شك.. أن أجتمع وأتكلم مع مائتى عام فى المكان نفسه وفى الوقت نفسه.. كيف حدث هذا أقولك..

أربع سيدات يتفاوتن فى السن تفاوتا كبيرا، التقيت بهن فى سهرة فنية.. الأولى امرأة فى الثمانين ولكنها لاتزال تحتفظ بآثار.. بالضبط ليس أكثر من آثار من الجمال الغابر.. والثانية فى الستين وهى فى تلك المرحلة التى تنكر تماما أنها بلغت هذه السن.. والثالثة فى الأربعين، وبالمناسبة لم يعد هذا سن اليأس عند المرأة بقدر ما هو سن الأمل.. والرابعة فى العشرين خارقة الجمال.. متفجرة الأنوثة.. وهى التى تكمل المائتى عام فى هذا العقد الفريد من النساء..

وهمست صغراهن فى أذنى قائلة.. خالتى تجاوزت الأربعين، ولا أستطيع أن ألبس ما تلبسه هذا.. ومررت بجوار خالتها التى همست لى: هذه السيدة التى تزيد عن الستين عاملة فى نفسها كده ليه، وذهبت إلى أم ستين، التى بادرتنى ضاحكة بخبث وقالت.. انظر إلى هذه العجوز الكُهْنة.. ولدت فى بداية القرن،

ومع ذلك تعتقد أن ما تضعه على وجهها من مساحيق سيخفى عمرها الحقيقى.

هنا.. تحركت أنا، وبدأت العقد من أوله.. ذهبت إلى المرأة ذات الثمانين عاما.. وقلت لها يا سيدتى أن هيأتك أشبه بهذه السيدة التى كنت أكلمها ـ كنت أعنى أم الستين ـ فكأنكما اختان، ولدتا فى سنة واحدة فابتسمت وقالت.. بالضبط.. فقد ولدنا فى عام واحد.. كيف عرفت؟! وعدت إلى أم الستين، وقلت لها.. لقد تراهنت أنا وصديقى على أنك وهذه السيدة ـ أم الأربعين ـ قد ولدتما فى سنة واحدة.. بل وفى شهر واحد كمان، فأمالت رأسها إمالة الإثبات الشديد، وقالت.. تكسب الرهان.. لقد ولدنا فى أسبوع واحد.

وذهبت إلى المرأة ذات الأربعين عاما.. وقلت لها لا يمكن أن تكونى خالة هذه الفتاة ابنة شقيقتك.. فمن ينظر إليكما يظنكما توأمان.. فأجابت لا.. هى فى الحقيقة ابنة أختى، لكن أمها كانت تكبرنى بخمسة وعشرين عاما، وقد ولدت أنا وابنتها هذه فى عام واحد.

وهكذا قالت ابنة الثمانين إنها ولدت فى سنة ولادة ابنة الستين، وهذه بدورها تذكر أنها ولدت فى السنة التى ولدت فيها

ابنة الأربعين، وهى أيضا تؤكد أنها ولدت وابنة العشرين فى عام واحد.

وبالتالى تكون العجوز ذات الثمانين من سن الفتاة ابنة العشرين؛ مما يعنى أننى لم أكن أكلم مائتى عام كما كنت أدعى.. وإنما فقط كنت أكلم عشرين عاما..

آه من أعمار النساء.. آه يا دماغى

ولكن.. لماذا تخفى المرأة عمرها الحقيقى؟

يؤكد البعض أن كاظم الساهر هو السبب فهو يغنى.. أشهد أن لا امرأة إلا أنت.. والباقى كلهم كسر.. والمرأة تريد أن تشعر دائمًا أنها المقصودة بالغزل، ولذا تتصابى ابنة الثمانين وتروش نفسها وتصرخ فى هيام بحبك يا كاظم هنا يكتئب عفوا يغنى: علمنى حبك أن أحزن، وأنا محتاج منذ عصور لامرأة تجعلنى أحزن.. ولأن الزمن لا يؤمن بالمرأة فيضع آثاره وتجاعيده عليها شاءت أم أبت.. فهى أيضا لاتؤمن بالزمن وتغالطه كثيرا.. ولكن من قال إن الرجل هو أيضا لايخفى عمره.. إنه يفعلها أحيانا.. إذا كان موعودا بالمد فى الوظيفة لفترة ثانية..

هذه الحكاية حدثت فى القرن الماضى.. يعنى من بتاع سنتين ونص كده.. أعنى قبل أن أتزوج وأعول وأعقل وأركز..

تلك الأيام البعيدة الموغلة فى القدم.. حينما كنت أتلقى تليفونات وأرد عليها بنفسى، وحينما كنت أقبل بكل شجاعة أى دعوة من أى صديقة تريد أن تفضفض لى بهمومها.. أو حتى معجبة تريد أن تبث لى إعجابها وجهًا لوجه، أملاً فى أن تحولنى أنا إلى معجب..

ألو.. أنا سناء ممكن أقابلك؟.. وأرد بكل سلاسة.. أوِى.. ما دامت هى سناء وتريد مقابلتى فلم لا.. ثم يرن التليفون.. مساء الخير أنا حنان عاوزة أتكلم معاك.. وأرد كعادتى.. أهلا..

وبعد الزواج.. أعنى الحصار العاطفى مثلما يحدث فى العراق.. قامت الجهات الأمنية المسئولة بتغيير رقم تليفونى كإجراء وقائى مبدأى.. ثم صدر قرار آخر بألا أرد على التليفون، إلا بعد التأكد من نية الطالب. ثم تحولت زوجتى إلى بعثه تفتيشية أمريكية.. تبحث فى

أوراقى وأرقام التليفونات المسجلة على المحمول.. للتخلص من أى رقم يحمل اسمًا انثويًا.. يعد بالنسبة لها.. من أسلحة الدمار الشامل..

وبعد سنتين ونصف من هذه الأحكام العسكرية.. تحول تليفونى الذى كان لايتوقف عن الرنين أربعة وعشرين ساعة فى اليوم.. تحول إلى جثة هامدة.. مجرد بتاع كده حاطه جنبى.. كأنه طفاية.. ولاعة، علبة سجائر.

نعود إلى الحكاية التى حدثت فى القرن الماضى.. حينما رن جرس التليفون الساعة الثانية عشرة مساء.. وصوت رقيق يسألنى.. إنت كويس؟ قلت مين.. قالت أنا بسألك إنت كويس.. قلت لها.. أيوه كويس.. قالت.. طيب تصبح على خير، وقفلت السكة.. تملكتنى الحيرة.. من هى؟ إن صوتها ليس مألوفا لدى عموما.. هى حرة.. أنا كويس.. ونمت.. ونسيت الحكاية كلها..

فى اليوم التالى عدت إلى المنزل بعد يوم شاق.. وتمددت على الكنبة..

وفى تمام الثانية عشرة مساء رن التليفون.. ألو.. الصوت نفسه يسألنى.. إنت كويس، قلت لها فى غيظ إنت مين، قالت.. أنا

واحدة عاوزة تطمأن عليك.. إنتَ كويس؟ وقفلت السماعة فى وجهى هذه المرة.

فى اليوم التالى.. ذهبت إلى البيت قبل الثانية عشرة متعمدا.. ولم تخيب ظنى.. و.. إنت كويس.. ولم أتمالك أعصابى.. اسمعى أنا مش فايق للعب العيال ده.. إنتى مالك أنا كويس، ولامتنيل بستين نيلة.. قالت بهدوء قاتل رزل.. مالك بس، ما انت كنت كويس، واستفزتنى هذه قلت لها.. أنا كويس طول ما إنتى ما بتتكلميش.. بتتكلمى مابابقاش كويس فهمتى.. قالت.. كويس.. ووضعت السماعة.

وللحق.. توقفت صاحبتنا عن المكالمات بعدها تماما.. وبدافع الفضول لا أكثر.. كنت أذهب وأنتظر تليفونها، ولا أنكر أننى بقدر ما سعدت من زاحة دماغى.. بقدر ما قلقت عليها أحسن تكون مش كويسة ولا حاجة.

بعد شهر رن جرس التليفون كانت هى فى نفس الموعد نفسه وباللهجة نفسها ولكن يشوبها ابتسامة.. إنت كويس دلوقت؟! قلت لها باسما.. آه كده أحسن.. كل شهر مرة ماشى.. إنما كل يوم.. صعب.. قالت المهم إنى اتطمنت إنك كويس.. وقفلت السكة.. قلت لنفسى يا بنت المجنونة!!

فى صباح اليوم التالى كنت جالسا فى أحد الأوتيلات.. أكتب كعادتى وجاءت المضيفة، ووضعت أمامى فنجان القهوة، وما كدت أرشف منها أول رشفة.. حتى اخترق أذنى سؤال أنا أعرفه جيدا.. إنت كويس؟ واندلق فنجان القهوة، ونظرت نحوها قائلا.. إنتى.. قالت.. لا تغضب.. الحكاية إن فنجان القهوة الذى تشربه الآن عُرِضَ عليا فيه خمسمائة جنيه!! قلت لها إزاى.. قالت.. جاءت لى فتاة، وطلبت منى أن أعطيها الفنجان الفارغ، بعد أن تشربه وتعطينى المبلغ.. قلت لها لماذا.. قالت لأنها تريد أن تعمل لك عمل.. تسحرلك.. قلت لها مفزوعا.. وهل أعطيتيه لها.. قالت.. والله العظيم ما حصل.. بس أنا خفت أحسن تقعد فى مكان تانى وتشرب قهوة، وولاد الحرام ياخذوا الفنجان.. قلت لها.. عشان كده كنتى بتسألينى إنت كويس؟!

ولكن ما العمل.. قالت إياك أن تشرب فنجان قهوة أو كوبًا وتتركه.. قلت لها: وماذا أفعل قالت بعد ما تشرب الفنجان.. تكسره.. إن هذا يحدث كثيرا فى كل المطاعم والمقاهى.. ولن يلفت النظر.. الكل سيقول لك.. خير.. خير خد الشر وراح..

وفى أقل من ستة أشهر يا أعزائى كنت قد دشدشت عشرين طقم فناجين وكبايات غير اثنى عشر طقما، احتفظت بها لنفسى خلسة قبل أن يراها الجرسون. والحمد لله.. اطمأنكم.. أنا كويس!!

لحظات صمت مريبة وغامضة سادت الغرفة بمجرد دخولها إليها.. خلاص انتهت إجراءات الزفاف وسكتت الهيصة والغناء والرقص والزغاريد.. والمعازيم رَوَّحوا ونسوا كل شيء..

ولم يتبق بعد كل هذا سواهما وجها لوجه.. العريس والعروسة.. هى جلست بفستانها الأبيض على السرير، وخلعت الطرحة.. هذا ما شاهدته فى كل الأفلام وليس أمامها شيء تفعله سوى ذلك.. فهى لم تتزوج من قبل لتبتكر شيئا جديدا، أما هو فقد خلع الكرافاتة وفتح النافذة، وقال: الدنيا حر قوى.. وهذه أيضا لم تكن من ابتكاره.. لا يذكر هل قالها كمال الشناوى أم شكرى سرحان.. وجلس مطرقا يفكر.. كيف أبدأ؟!

الهدف معروف ومحدد، وكان لابد من بداية، وهم فى الأفلام غالبا يقطعون هذه البدايات.. لعن الله المونتاج.. أما هى فجلست تفكر.. المفروض إنى مش فاهمة حاجة.. يجب أن أبدو كذلك.. إلا إذا كان هو مش فاهم.. هنا سأضطر إلى أن أفهمه..

فى صباح اليوم التالى كنت جالسا فى أحد الأوتيلات.. أكتب كعادتى وجاءت المضيفة، ووضعت أمامى فنجان القهوة، وما كدت أرشف منها أول رشفة.. حتى اخترق أذنى سؤال أنا أعرفه جيدا.. إنت كويس؟ واندلق فنجان القهوة، ونظرت نحوها قائلا.. إنتى.. قالت.. لا تغضب.. الحكاية إن فنجان القهوة الذى تشربه الآن عُرِضَ عليا فيه خمسمائة جنيه!! قلت لها إزاى.. قالت.. جاءت لى فتاة، وطلبت منى أن أعطيها الفنجان الفارغ، بعد أن تشربه وتعطينى المبلغ.. قلت لها لماذا.. قالت لأنها تريد أن تعمل لك عمل.. تسحرلك.. قلت لها مفزوعا.. وهل أعطيتيه لها.. قالت.. والله العظيم ما حصل.. بس أنا خفت أحسن تقعد فى مكان تانى وتشرب قهوة، وولاد الحرام ياخذوا الفنجان.. قلت لها.. عشان كده كنتى بتسألينى إنت كويس؟!

ولكن ما العمل.. قالت إياك أن تشرب فنجان قهوة أو كوبًا وتتركه.. قلت لها: وماذا أفعل قالت بعد ما تشرب الفنجان.. تكسره.. إن هذا يحدث كثيرا فى كل المطاعم والمقاهى.. ولن يلفت النظر.. الكل سيقول لك.. خير.. خير خد الشر وراح..

وفى أقل من ستة أشهر يا أعزائى كنت قد دشدشت عشرين طقم فناجين وكبايات غير اثنى عشر طقما، احتفظت بها لنفسى خلسة قبل أن يراها الجرسون. والحمد لله.. اطمأنكم.. أنا كويس!!

الأزواج.. وآهى الأيام قدامنا.. وفى الصباح الباكر الذى نطلق عليه الصباحية.. حيث تساهم العصافير بزقزقتها الرائعة.. والشمس الدافئة التى تدخل حجرة العرسان كأنها نقوط جديد يلقى عليهما..

مدت هى أصابعها الرقيقة لتداعب شعره طبقا للمادة الثانية من العقد المبرم بينهما، واستيقظ العريس وهو يشعر أنه لم يستيقظ بعد، وقبل الأنامل حسب العقد المبرم من المادة ٢.. ورن جرس التليفون وإذا بصوت ناعم مخملى غارق فى الأنوثة.. ألو.. مبروك ياعريس.. صباحية مباركة.. ارتبك.. لا يعلم لماذا ارتبك.. ورد باقتضاب مين حضرتك.. قالت بأنوثة فياضة.. أنا واحدة.. ماشالتش عينها من عليك، طوال ما انت قاعد فى الكوشة.. فوضع السماعة فى ضيق..

ونظر إلى زوجته فأدرك تماما أن المادة الثالثة من العقد المبرم بينهما، قد ألغيت تماما حينما صرخت فيه قائلة مين دى؟! ثم وجد المادة الرابعة هى أيضا تدمر وهى تكلم أهلها.. ماما.. بابا.. لازم تيجوا حالا، أنا لا يمكن أستمر مع البنى آدم ده..

وهكذا تبدأ الحياة البداية الحقيقية التى تستلزم دائما تعديل صياغة القوانين حسب الظروف الجديدة، فإذا كان عمر بن الخطاب قد ألغى قانون قطع يد السارق فى أيام الشدة والمجاعة، فما أحوجنا

إلى إعادة التفكير فى قوانين كثيرة تحكم حياتنا؛ فالقوانين فى حد ذاتها مثالية سامية وهذا شيء جميل.. إنما الأجمل أن تهبط إلى أرض الواقع فتصبح لحما ودما..

ألستم معى فى أن كل الشباب العاطل التائه الفاقد الأمل يحتاج منا إلى نظرة فيما يختص بالقوانين!!! وإليكم أعزائى مشروع قانون الاجتماعات الجديد، وهو مكون من بندين:

بند١: للمصريين أن يقيموا مظاهرات وتجمهر، كما يشاءون، بشرط ألا يزيد عدد المتجمهرين عن متظاهر واحد.

بند٢: على الشخص الذى يتجمهر وحده أن يعبر عن رأيه بمنتهى الحرية، بشرط ألا يسمع هتافه أحد..

تافهة.. عبيطة.. عبثية.. تلك أسباب المشاكل التى تحدث بين الأزواج.. وأنا أحمل الزوج المسئولية كاملة، لأن عقله الصغير لايستطيع أن يتجاوز تلك الأمور الصغيرة التافهة التى تثيرها زوجته العاقلة الحكيمة، ويصر على أن يحرز انتصارا حاسما فى جولة النقاش، على الرغم من أن الزوجة تعتبر نفسها مثل الزبون.. دائما على حق.

والعلاقة بين الزوج والزبون علاقة وثيقة، فهى إذا دخلت محلا يمكن أن تنزل كل بضائع المحل أمامها، وتجرب كل أدوات الزينة وتقيس كل الموديلات، ويظل البائع المعذب يروح ويجىء ويطلع وينزل أمامها بلاشفقة.. ثم فى النهاية تمصمص شفتيها فى حسرة وتقول: لا.. مِشْ اللى فى دماغى..

وإذا حدث وألقيت عليها باللوم تقول لك.. هو أنا حآخده ببلاش.. مش ح ادفع فلوس ولا أحب أن أخبرها أن نصف ملابسى اشتريتها واسعة عليا.. ومهرولة إشفاقا على البائع المسكين، الذى تعبته

معى.. وكنت أعود فى كل مرة وأسألها.. مين من قرايبنا جسمه جِرِم شوية.. عشان أشحتّه الهدوم الجديدة.

قال صديقى لزوجته وقد أمضت وقتا طويلا تفحص سترة جديدة لطفلهما الصغير بمحل الثياب.. يستحسن يا عزيزتى أن تنتهى إلى رأى.. قبل أن يكبر الطفل..

والتركيبة النفسية للزوجة إنها تظن دائما إنها أكثر ذكاء من زوجها، وإنها فاهماه أكثر مما يفهم هو نفسه، وأنه دائما يضن عليها بشىء ما.. شىء ما ينقصها.. فإذا كان فقيرا.. فهى لا تجد الفلوس.. وإذا كان مليونيرا فهى لا تجد العواطف والأحاسيس، التى هى أهم من كل فلوس الدنيا، فى هذه الحالة فقط طبعا.. وإذا كانت حياتها هادئة مستقرة.. قالت.. ما هذا الملل. وإذا امتلأت حياتها بالعواصف والأعاصير.. قالت أين الاستقرار..

وزوجة تولستوى مثلا نكدت عليه عيشته لدرجة أن الرجل ليلة وفاته أصر على الهروب ليلا من المنزل.. ربما كان يريد أن يموت بعيدا عنها خوفًا من أن تقبض على روحه.. فقد ظلت طول عمره تحاسبه على كل كبيرة وصغيرة. ويبدو أن الرجل أصر ألا يكون الحساب النهائى معها أيضا.. وكانت غلطته أن وزع أملاكه وأطيانه كلها على الفلاحين.. وللحق هو لم يأخذ رأيها حينما فعل ذلك..

لأنها حتى تفهم مايعنيه تولستوى.. كان يجب أن تكون هى أيضا «تولستوية» وهذا مستحيل.

وريتا هيوارث تزوجت من على خان الأمير الأسطورى وزارت مصر فى بداية الخمسينيات هى وعلى خان.. كانت تحب الأناناس.. فكان يرسل فى إحضار أربعين ثمرة من ثمار الأناناس من نيروبى الواحدة، تزن أربعة كيلو جرامات من أجل عيونها.. كانت ساحرة جميلة.. بسيطة تخاف من الأسانسير وتظل ممسكة بعلى خان.. تحب أن تمشى حافية، وقالوا عنها إن ثمة شيئا فى ريتا هيوارث لايمكن تجاهله.. إنها تبدو ودائما وكأنها تفكر فى شىء بعيد بعيد جدا. ويكسو عينيها بريق عجيب.. ولم يعرف أحد ما هو هذا الشىء البعيد الذى كانت تشرد إليه ريتا.. ولكننى عرفت.. ثلاثة ملايين جنيه إسترلينى.. نفقة المتعة التى طلبتها من على خان بعد الطلاق.. وأنا لو من على خان لطلبت خمسة ملايين نفقة متعة لى أنا، بعد أن تهجرنى ريتا.. المسألة وجهات نظر..

عند الطبيب النفسى صرخ الزوج شاكيا، وقال.. يا سيدى أنا أحيا فى هذا البيت حياة الكلاب فسأله الطبيب.. ألم تخنها مرة.. قال الزوج لقد عشت معها نموذجا للإخلاص والوفاء.. فقال الطبيب.. تلك هى شيم الكلاب بالفعل.. هنا قالت الزوجة إن

هذه الشكوى قد تكون صحيحة بالفعل يا دكتور.. فهو النموذج المتكامل لحياة الكلاب.. فهو يعود للبيت بأقدام موحلة، ويسير بها فوق الأرضية النظيفة.. وهو ينبح طول اليوم بلا سبب ويعوى عندما يقدم له الطعام.. ثم يستلقى متمطعا بحذائه فوق أفضل قطعة من الأثاث.. ويتقلب ثلاث مرات قبل أن يرقد..

هنا لاحظ الطبيب أن الزوج قد بدأ يزوم قليلا ويزمجر.. وتدلى لسانه من فمه، وإنقاذا للموقف أعطاه حقنة مهدئة.. نام بعدها كالجرو الوديع، وصدره يعلو ويهبط.. ونصحها الطبيب بعد ذلك أن.. أن تربطه.

يحلو لى كثيرا أن أعمل لنفسى تلك الاختبارات المتناثرة فى الصحف والمجلات، والتى هى عبارة عن مجموعة من الأسئلة ينتج عن الإجابة عنها تحديد معلم من معالم شخصيتك، مثلا هل أنت بخيل؟ هذا هو السؤال الذى يجب حتى تصل إلى نتيجته أن تجيب قبله على ثلاثين أربعين سؤالا بنعم أو لا، وفى النهاية أو فى صفحة بعيدة علشان ما تغشش.. تجد الإجابة إذا كان عندك ١٥ نعم فأنت معتدل، أما إذا قل عدد النعم عن ١٠ فأنت بخيل، وإذا زاد عن ١٥ فأنت حاتم الطائى وفييس، واللى فى جيبك لغيرك..

وفى إحدى المجلات كان السؤال هل أنت حقَّانى أم غشاش ولسبب لا أعرفه فريت الصفحات بسرعة؛ حتى أصل إلى النتيجة النهائية التى سترْشدنى كيف أطلع فى النهاية حقَّانى من خلال إجاباتى عن الأسئلة فوجدت هذا التعليق «إذا حاولت أن تعرف النتيجة قبل أن تجيب على الأسئلة فلا تتعب نفسك أنت غشاش»، ولا شك أن السؤال الجذاب الذى نلهث وراءه طول حياتنا هو ذلك السؤال التاريخى هل أنت سعيد؟

والواقع أن أحدا منا لا يعرف بحق هل هو سعيد أم لا.. فيكفى لضرس وَجعك أو كآللو فى رجليك أن يحول حياتك إلى جحيم، وهذا السؤال حاول الإجابة عنه كل الفلاسفة وكل الكتاب.. فهذا برتراند رسل الفيلسوف الإنجليزى يؤلف كتابا اسمه "**الوصول إلى السعادة**".. وقلبت الدنيا على الكتاب حيث صار مصدر تعاستى وشقائى هو الوصول إلى الكتاب، وليس إلى السعادة، ووجدته وقرأته ولم أصل إلى شىء، وهذا ديل كارنيجى يؤلف مجموعة كتب عن السعادة، تكتشف بعد أن تقرأها أن الوحيد الذى وصل إلى السعادة هو كارنيجى نفسه، بعد أن بيعت ملايين النسخ من كتبه ولعبت معاه.

وأخيرا وقع فى يدى الكتاب الآتى (**فى رواق السعادة**)، وهو للكاتب الأمريكى وين داير، وترجمة الأستاذ فوزى وفاء، وفى مقدمة الكتاب الرائعة يطرح الكتاب خمسة وعشرين سؤالا الغرض منها قياس قدرة المرء على اختيار السعادة وتحقيق الذات، وهذه المرة قررت أن أجيب عن الأسئلة بموضوعية، ودون أن ألجأ إلى الغش كالعادة، مثلما فعلت فى الاختبارات السابقة، والتى نتج عنها أننى كريم وذكى وطيب وحقانى وكويس كواسة مش معقولة. وإليكم الأسئلة وأجوبتى عليها بكل صدق. وقد قررت للأمانة أن أجعل

اختبار السعادة شفهيًا.. تسألنى زوجتى وأنا أجيب، وهى تدون الإجابات وتكتب الدرجات التى استحقها بالفعل.

أمسكت زوجتى بالكتاب، وبدأت تسألنى وتسجل إجاباتى.

* هل تعتقد أن عقلك ملك لك؟

طبعا لا.. **أولا** لأننى زوج.. والزوج المثالى لا يملك عقله، وإنما يقدمه عن طيب خاطر لزوجته.

ثانيا لأننى أب وابنتى لحست عقلى.

ثالثا لأننى كاتب والقراء هم الذين يمتلكون عقلى.

* هل أنت متحرر من الحاجة لإطراء الآخرين لك؟

طبعا لا.. فأنا مثل الحصان لا أجرى إلا بقطعة سكر وإذا لم أسمع الله يا عينى.. إيه الحلاوة دى حتى عن السخافات التى أكتبها.. أموت..

* هل يمكنك أن تتقبل نفسك كما هى وتتجنب الشكوى؟

برضه لا.. فأنا شكاء طول الوقت فى الفاضية والمليانة، وابتديت اتخنق من الأسئلة.

* هل يمكنك أن تحب نفسك فى كل الأوقات؟

لا يمكن.. أنا طول الوقت مش طايق نفسى، ولولا الملامة كنت مرمطت بيا الأرض.

* هل تخلصت من كل العلاقات التى فيها اعتماد على الآخرين؟

وهذا أيضا لم يحدث.. فأنا أعتمد على الآخرين فى كل شىء.. والله بأه لو لقيت حد يكتب لى.. وحد ياكل لى، وحد يشرب لى.. وحد يجاوب عن الأسئلة دى.

* هل تستطيع أن تتجنب مشاعر الغضب فى حياتك؟

لا.. عمرها ما حصلت فأنا أغضب دائما وأقيم الدنيا وأقعدها على أتفه الأمور.

* هل استطعت أن تستأصل التسويف والتأجيل كطريقة تتبعها فى حياتك؟

ياريت نأجل السؤال ده.

* هل تعلمت أن تفشل بطريقة إيجابية؟

لا طبعا.. فأنا أفشل بطريقة سلبية تماما.. ثم أزعل على الفشل الذى فشلته.. ثم أزعل أكثر على زعلى على الفشل.

* هل فى استطاعتك التخلص من القلق من المستقبل؟

بالتأكيد لا.. فأنا أقلق إذا لم أقلق على المستقبل.

* هل تستعذب روح المرح وتمارسه؟

كنت.. الآن.. انسى

وظلت زوجتى تلاحقنى بالأسئلة، وأنا ليس على فمى من إجابة سوى.. لأ.. لأ.. وهى تبتسم ابتسامة خبيثة إلى أن انتهى الاختبار، وجلست فى انتظار النتيجة.

قالت النتيجة يا حبيبى إن الإجابة بنعم تعنى أنك سعيد، وأنك تسيطر على سعادتك وقرارك اختيارك.. أما إجابات حضرتك كلها فتعنى إنك إنسان بائس.. تعيس.. تموت فى النكد، وتبحث عنه بإبرة قلت لها معترضا فى غضب..أنا.. أنا نكدى.. هذه النتائج خاطئة بالتأكيد.. ربما تسرعت فى الإجابة.. وإنتِ.. إنتِ ألقيت الأسئلة بطريقة موحية بأن أقول لا.. إنتِ خدعتينى؛ ثم هذا الكاتب وين داير أنا لا أؤمن به إطلاقا قالت ألم تقل لى إنه عالم نفسى شهير، وإن له عشرة مؤلفات فى علم النفس.. قلت لها بحسم اسمعى نعيد الاختبار. قالت ولكنك عرفت الأسئلة والإجابات.. قلت لها بإصرار نعيد الاختبار.. قالت باسمة وكأنها تأخذنى على أد عقلى.. ماشى..

* السؤال الأول: هل تعتقد أن عقلك ملك لك؟

قلت لها.. نعم طبعا.

* هل أنت متحرر من الحاجة لإطراء الآخرين لك؟

قلت لها أكيد.. نعم.. نعم

* قالت هل تتجنب الشكوى دائما؟

قلت لها.. بلا شك.. نعم.. أنا لا أشكو مطلقا.

فى النهاية بعد ٢٥ نعم قلتها، سألتها.. ما النتيجة قالت فى غيظ.. ما انت عارف.. قلت لها.. إذًا أنا سعيد..

قالت فى غيظ.. هل تضحك على نفسك.. أنت تجيب عن الأسئلة بعد أن عرفت الإجابات الصحيحة، قلت لها إن السعادة اختيار.. وأنا اخترت الإجابات الصحيحة، حتى لو كنت.أعرفها.. حتى لو كنت غاششها.. فما أجمل أن تجعلنى سعيدا حتى لو بالغش.

نجحت الأفلام العاطفية المصرية فى تاريخها الطويل فى تبويظ الحب وكلامه، بعد أن استهلكت كل وسائل التسبيل التى يقوم بها الرجل والمرأة، وظهرت تعبيرات جديدة تقولها فى وشك أى واحدة تحاول أن تتقرب منها، فإذا بها تقول لك إيه ده فيلم بأه والا إيه.. أو تقول لك إنت ح تغنى عليّا، أو تقول لك ح تشغل لى الإسطوانة.. فيسقط فى يديك على طول، وترتبك ولاتجد ما تقوله..

كنت جالسا ذات يوم مع إحداهن وأخذتنى الجلالة وقلت لها بكل صدق وبكل رومانسية.. ليه كده.. بتعملى فيّاكده ليه.. تقريبنى منك وبعدين تبعدينى عنك تانى.. فابتسمت فى برود، وقالت لى. قالها عبد الحليم لشادية فى معبودة الجماهير.. متخيلين حالتى طبعا ولكنى لم أيأس.. أكملت حديثى و قلت لها.. إن كل السنين اللى فاتت دى ماكنتش عارف إنى بحبك إنتى، وإنك انتى ملهمتى.. قالت لى فى غتاتة ماهى دى بتاعة فريد اللى قالها لفاتن حمامة فى لحن الخلود.. هنا أدركت أن القعدة ضربت، والمسائل باظت وتركتها وذهبت إلى البيت فشدنى الحنين إليها.. رفعت

سماعة التليفون وطلبتها.. ردت على بصوت عذب.. ألو.. قلت لها بصوت حالم إنتى نمتى.. فأجابت بغلاسة ليس لها مثيل إنت لسه شايف الوسادة الخالية ولاّ إيه!!

وساد التفكير الواقعى (العملى) العلاقات العاطفية، فأفقدها روحها وعبقها، وصار الحب مثل الورد البلاستيك ومثل تفاح الصالحية ومثل خيارالصوبة.. تقول لى الفتاة ذات الواحد والعشرين عاما الحب فعل مش كلام، وأقول لها غلط يا عزيزتى الحب كلام وكلام وكلام ثم فعل.. لكن الكلام مهم جدا..

قال لى المهندس خالد صديقى إنه لم يسمع أثناء فترة خطوبته منها أى كلمة حب أو غزل، وحكى لى يوم اتصل بها ليتواعدا على لقاء، فكان الحوار التالى بدأت هى الحوار قائلة.. حنروح فين النهاردة يا روح أمك فقال لها خالد الرومانسى أى حتة يا حبيبتى.. فأجابت فى زهق يا قَبْضة القلب ما تخلصنى حانقعد فين.. أهو حته نَطَّق حنكك فيها (نقول كلمتين مع بعض يعنى)، فأجاب فى وداعة ح اعدِّى عليكى ونفكر فى السكة.. فقالت.. قشطة عليك.

ويحكى لى المعذب خالد أنه كانت له صديقة.. مهندسة كمبيوتر، وكانا يتبادلان الرسائل عبر جهاز الكمبيوتر .. علاقة جميلة وعصرية وغريبة فى الوقت نفسه، وذات يوم أرسل لها

رسالة عبر الكمبيوتر، فأجاب الكمبيوتر على الشاشة «نعتذر عن الرد إذ أن الصديقة الفلانية ماتت منذ أسبوعين» موقف غريب ورائع ومثير للشجون، ولم يتبق من صداقته لهذه البنت سوى بعض الصور وبعض رسائل الكمبيوتر، احتفظ بها للذكرى، وضاقت زوجته بهذه الصور وطلبت منه التخلص منها..

وفى ليلة ليلاء وبلا أى مقدمات قامت فى نص الليل كالمسروعة، قالت له.. وديت الصور بتاعة فلانة دى فين.. حدث هذا بعد منتصف الليل والناس نايمة.. وأغلقت صاحبتنا باب الحجرة بالمفتاح ونكشت شعرها وأحمرت عيناها، وقالت له فى نعومة ورقة.. ليلة أهلك مش فايتة.. أكيد إنت لسه بتقابلها..

والمرأة تغير حتى من الأموات.. ظبطتنى إحداهن أقرأ الفاتحة فى سرى ذات يوم.. فقالت لى فى تهديد ووعيد الفاتحة دى بتقرأها على روح مين، قلت لها على روح الحاج أبويا الله يرحمه، فقالت.. أمال بتقرأها فى سرك ليه!!

اختفت يا أعزائى المرأة الرقيقة الوديعة الحالمة بتاعة زمان، التى كانت تفتح بقها، وهى تأكل وتدخل فيه فتفوته أد كده، وتقوللله صغير.. بُقِّى صغير أعمل إيه..

وحلت محلها امرأة أخرى تدفس نصف فرخة فى بقها، وتسمع

صوت تحطيم العظام تحت أسنانها، ثم تحبس بحجرين شيشة معتبرين.. وبعد كل هذا تقول لى نكتب شِعْرًا فى المرأة..

نقول إيه طيب!!

ولا أنسى يوم انهالت عليا باللوم، وتخَّنت صوتها مثل محرم فؤاد وهات يا زعيق فى وجهى.. قلت لها.. مهما حدث لا يصح أن تتكلمى معى بهذه الطريقة، فأجابت ده الطقم الأولانى بس أنا كمان مش عاوزة أشد عليك، عشان إنت زبون.. بأكلمك بالأمانة يعنى.. (لاحظوا اللغة التى تتحدث بها) قلت لها ماشى يا أسطى.

حتى صورة المرأة تغيرت.. لم يعد الشعر الحرير ع الخدود يهفهف ويرجع يطير.. نكشت المرأة شعرها مثل أُمَّنا الغولة ووضعت أحمر شفاه غامق كأنها واكلة عيل.. وتعتقد المرأة أنها بهذه الشخصية الهجومية العملية الجرئية ستقهر الرجل وتنتصر عليه.. وأقول لها ـ إذا سمحت لى ـ إن معظم الجولات التى كسبتها المرأة عبر العصور كسبتها بضعفها.. برقتها.. باحمرار خديها..

قال لى صديقى الحالم.. أيوه يا جو.. احمرار خديها.. أهوه ده إللى شدنى ليها.. من أول لقاء.. بمجرد أن تصافحنا وشها ده تقول طماطماية.. قلت له.. جميل، ولماذا لم ترتبط بها.. فقال فى أسى.. طلعت حصبة بس جاية على كبر..

(فى حياة كل منا «وهم» كبير اسمه الحب الأول)
هذه الجملة مش بتاعتى، وإنما هى مكتوبة باسم الكاتب المدهش المذهل الرائع إحسان عبد القدوس..

(فى حياة كل منا «وكسة» كبيرة اسمها القبلة الأولى)
دى بأه بتاعتى.. أعنى الجملة.. لا القبلة..

وأول قبلة فى حياة أى منا هى تجربة مرعبة.. وهى أول صراع حقيقى بين رغبة الرجل.. وتمنع المرأة.. أو بتعبير أكثر وضوحا.. بين رغبة المرأة وجبن الرجل..

والمسألة ليست مجرد «مد بوز»، وإنما هى فكرة شيطانية رومانسية جريئة لا تأتى عفو اللحظة كما يتصور البعض، وإنما هى عملية مدبرة من صباحية ربنا.. نازل من بيتك.. غاسل سنانك.. مش واكل بصل.. حالق ذقنك.. خافف شنبك.. ويأتى وقت الامتحان الذى يكرم فيه المرء أو يهان بقلم على وشه.. أو بزغدة فى كتفه..

والقبلة السينمائية.. قبلة مزيفة.. متفق عليها.. كتبها سيناريست وصورها مصور وأخرجها مخرج.. فتجد مثلا فى الفيلم فلاحة بسيطة يحبها البطل.. ابن

الباشا ويظل يلاحقها إلى أن يختلى بها فى أى حتة.. ويقترب منها.. مادًا بوزه.. وهى تقاوم.. لاياسيدى.. بلاش يا سيدى، ثم يغيبان فى قبلة طويلة.. إذا حللناها بموضوعية سنجد أنه من المستحيل لفلاحة ساذجة أن تجيد التقبيل بهذه الطريقة، لاسيما وأن المخرج يريد أن يفهمنا أن هذه هى أول قبلة.

وتظل القبلة السينمائية هى فاكهة الفيلم، وهى مشهد النهاية المفضل لدى الجمهور، ومن بين الكام ألف فيلم الذين قدمتهم السينما المصرية بتاع كام ألف فيلم برضه انتهت جميعًا بالقبلة الشهيرة.. و على برغم من أن عملية التقبيل هى عملية مشتركة، وشركة مساهمة بنسبة ٥٠٪ لكل منهما.. والمفروض فى القبلة الصحيحة ألا تدرى من منهما الذى يقبل الآخر.. فمع ذلك استطاعت المرأة أن تروج لفكرة عجيبة، وهى أن القبلة منحة أنثوية منها للرجل..

واستطاعت أن تجعله يبذل أقصى الجهد فى إقناعها وفى التحايل واللف والدوران، بينما هى تسخر بداخلها من هذا العبيط الذى يظنها مش عاوزه.. تماما كما ضحكت «سارة»، وهى تحكى للعقاد عن هذا الرجل الذى أفهمها أنه يريد أن يعلمها قيادة السيارات وأجلسها بجواره.. حتى وصلا إلى منطقة نائية.. وبدأ يلمح لها..

ويسبل لها عينيه.. ويمط شفتيه.. وهى تعلم من أول لحظة أنه يريد أن يقبلها وقالت سارة للعقاد بجرأة وهى لا تتمالك نفسها من الضحك.. أما لقيته حيتراجع عن اللى فى دماغه.. عملت نفسى زعلانة.. وقلت له.. أنا ماكنتش أتخيل إنك من النوع ده.. وهو يقسم لها بكل صدق وبأغلظ الأيمان أنه لايقصد أى حاجة وحشة.

وأضافت سارة بأنوثتها الفياضة.. شوف الأهبل.. حد يقول ع البوسة حاجة وحشة؟! ومرة أخرى كانا.. «العقاد وسارة» فى دار السينما يشاهدان فيلم فالنتينو معبود النساء.. وكان فالنتينو يعمل فى الفيلم مدرسًا لفتاة صغيرة، وأثناء شرحه للدرس فجأة.. انقض عليها وقبلها قبلة عنيفة.. واستاء العقاد، وقال لها.. هذا مجرم كيف يقبل الفتاة عنوة هكذا.. فابتسمت سارة فى خبث وقالت له.. يا بختها.. لقد كافأها أكبر مكافأة تتمناها.

والقبلة الأولى فى حياة أى منا.. وهنا أعنى الرجال بشكل واضح.. غالبا ما تفشل فشلا ذريعا.. وتصبح مثل ورقة بوستة تلطعها على ظرف.. قبلة ساذجة مرتعشة ليست واثقة من نفسها.. وتغفر له المرأة غالبا هذه الوكسة، على أمل أن يطور العاشق من نفسه ومن أدواته.

وفى السينما قبلات كثيرة أثارت ضجة وكلامًا، وقبلات أخرى مرت مرور الكرام مثل الوكسة الأولى التى تحدثنا عنها.

وبين آلاف بل ملايين القبل.. اختار لكم قبلتين.. لكل منهما قصة ومعنى.. القبلة الأولى «سياسية» تلك التى قبلها عمر الشريف لباربرا سترايسند النجمة الأمريكية اللامعة، فى فيلم **«فتاة مرحة»** وقامت الدنيا ولم تقعد لأن عمر الشريف يقبل يهودية.. هذا قبل «كامب ديفيد» طبعًا، وثارت القوى الوطنية أيامها؛ لأنهم اعتبروا أن عمر الشريف حينما «طبع» قبلة على شفتيها كان موافقًا «للتطبيع».

أما القبلة الثانية فهى قبلة لم تتم.. كانت البطلة نعيمة عاكف وكان مشهد النهاية يقتضى أن يقبلها البطل.. ولكنه كلما هم بتقبيلها.. صرخ المخرج «حسين فوزى» ستوب.. ويوقف المشهد.. وتكرر هذا عدة مرات، واندهش الجميع إلى أن خرج المخرج من خلف الكاميرا، واختلى بنعيمة عاكف التى سألته. لماذا توقف المشهد فقال لها.. تتجوزينى.. وأدركت نعيمة طبعًا سبب إلغاء القبلة فى مشهد النهاية فى الفيلم.. ربما لأنه أراد أن يضع بنفسه مشهد البداية لحياته الزوجية مع من يحب.

ولا يشترط فى القبلة السينمائية أن يجمع الحب بين البطل والبطلة.. بل إن مسابقات تقام فى لوس أنجلوس وشيكاغو.. حول أطول قبلة فى العالم..

وقد حقق دينو ديلودين وباربرا كين رقما قياسيا.. بعد أن تبادلا

قبلة امتدت ستة أيام متواصلة.. ولم يذكر لنا البعض أى تفاصيل عن كيفية إنجاز هذا الرقم القياسى.. فهل انقطعت القبلة لتناول الغذاء.. أو لشرب الماء.. أو.. أى حاجة يعنى..

أما فى السينما فكانت أطول قبلة سينمائية فى فيلم «إنك فى الجيش الآن» وظلت لمدة ١٨٥ ثانية.. وقد سجلت الرقم.. زوجة الرئيس ريجان السابقة ريجية تومى عام ١٩٤٠.. أما الرئيس كلينتون فلم تسجل باسمه فى الموسوعة أى أرقام جديدة خاصة بالقبلات؛ ربما لأن السيجار الكوبى الفاخر لم يفارق فمه.. طوال فترة الرئاسة.

أعزائى.. انتهى المقال.. قبلاتى.

هى تقول إننى «برَّاد»، ولا تعنى بذلك طبعا ذلك الإناء أبو بوز الذى نعد فيه الشاى، كما يحلو للبعض أن يطلق على الآخرين صفات لأجهزة منزلية أو أشياء لا إنسانية.. مثلما نقول على هذا إنه جردل أو إنه قلة.. أو إنه قفص جوافة.. وإنما هى كانت تعنى أننى رجل مبالغ فى شعوره بالبرد..

ولذا دائما ما تثار فى بيتنا تلك القضية الفلسفية الشهيرة التى شغلت مثقفى الستينيات.. نفتح الشباك ولا نقفله.. ولما كنت أنا من أنصار المأثورة العظيمة.. «الشباك اللى يجيلك منه الريح سده واستريح».. فتستطيع سيادتك أن تحدد بداية لخلافات يومية اعتبارا من آخر تسعة وحتى عيد الأم..

وخلافاتنا فى الحقيقة تتخذ شكلا علميا ميكروسكوبيا، فهى تقسم أن البيت مليان ميكروبات، ولابد أن تفتح الشباك علشان تهوى الشقة.. وأنا أقسم أننى أرى صاروخ هوا يدق فى عظامى كالشنيور..

فى النهاية تتغلب نظرية الميكروبات على نظرية صاروخ الهوا.. وأقرر أن أعتمد على نفسى فى التدفئة

الذاتية مستعيداً بعض حيل أجدادى البرادين فيما قبل التاريخ.. طاقية صوف وجوانتى صوف وشراب صوف.. مع روب صوف تحته مالذ وطاب من فانلات داخلية بنص كم وبكم وبيجامات وبلوفر قديم ثم.. زيارة قصيرة إلى المطبخ.. وأشعل الأربع عيون، وأمد كلتا ذراعاى فوق النار، وكأننى مجوسى قديم فى حالة صوفية من حالات التعبد..

تصرخ هى من الداخل.. ريحة شياط.. كان الجوانتى الصوف قد اقترب جدا من النار فأرفعه بسرعة ليس خوفا من الاحتراق.. وإنما.. من صوتها الآتى من الحجرة الأخرى، وهى تتساءل.. إنت حرقت حاجة؟!.. بعد دماغ الدفا اللى عملتها دى.. أذهب جريا إلى السرير قبل أن يزول مفعول النار.. أرفع الثلاث بطانيات واللحاف.. وأنزل تدريجيا فى هذا الفرن الخرافى الرائع..

أحاول أن أذهب فى نوم عميق، ولكنها تدخل حجرة النوم.. ثم تهزنى بعنف.. إيه اللى إنت عامله ده.. أكلمها من تحت الأغطية.. فأنا لا أسمح لسنتيمتر واحد من جسمى أن يكون خارج البطاطين.. يطلع صوتى مكتوما.. إيه فيه إيه.. ترفع البطانيات وهى تعد.. واحد.. اثنين.. ثلاثة.. متغطى بثلاث بطاطين؟!..

أرتجف من البرد وأرد فى غضب.. إنتى ح تعدى عليَّا البطاطين

كمان!! تضحك وتقول.. ياابنى كده تاخد برد.. أشد البطاطين عليا فى غيظ.. وأقول لها.. أنا كده خلاص أخدت برد.. ولكن يا نهار أسود.. ماهذا مروحة.. مروحة تدور وتلف فى عز البرد.. مروحة فى بيتى ومتى فى يناير؟!.. ترد فى برود.. وأنا أكره البرود والبرد معًا.. الأوضة مكتومة.. لازم تتهوى ثم تنهضنى من على السرير وهى تقول خليك رياضى كده قوم العب سويدى.. شوية تمرينات.. ح تدفا..

أمسك كباية الشاى دى.. أتناول منها كوب الشاى الساخن الملتهب بكلتى يدى.. الله.. الله ما هذه العظمة.. يالروعة السخونة.. أتحسس الكباية بحب.. أضعها على خدى وعلى مناخيرى.. أمررها على رجلى.. ورقبتى.. بعد ربع ساعة تدخل.. إيه ده إنت لسه ماشربتش الشاى.. أقول لها.. خلاص بردت.. تسألنى.. ولماذا لم تشربها وهى ساخنة.. أرد.. ما أنا كنت ماسكها.

أعزائى.. أنا إلى الآن لا أعرف سر هذا العشق الغامض لكل ما هو دافئ.. فأنا لا آكل أى شىء بارد.. ولا أشرب المثلجات.. ولاأستحم إلا بماء مغلى، وهذا لغويا أصح فالاستحمام من الحميم أما ذلك الحمام بالماء البارد ما هو إلا استبراد..

وإذا مررت فى طريقى بمجموعة من الصعايدة مولعين فى شجرة وقاعدين جنبها.. أركن وأنزل أقعد معاهم.. لحد ما الشجرة تخلص.. وفرصة سعيدة... وياما جمعت النار بينى وبين ناس في ليالى الشتاء الباردة... المعلم عزت من شبرا وجمعة أخوه.. ومتولى رفيق عمرهما.. كانوا أشقياء فى الصغر، ولكنهم تابوا والحمد لله وصاروا مثل البلسم أمام النار المتأججة من الشجرة الوالعة..

وقال لى عزت وهو يحكى لى عن فترة كفاحه لما كان فى العراق.. أنا كنت غاوى أفلام هندى أوى يا أستاذ يوسف.. عارف فيلم الشعلة أنا قعدت ورا الفيلم ده فى السِّيَم.. من سيما لسيما ومن حفلة لحفلة.. قلت له إلى هذا الحد كان الفيلم يعجبك.. قاللى مش مسألة فيلم أنا لحد ما أنا بأكلمك دلوقت ماشفتوش.. قلت له أمال بتروح السيم وراه ليه.. ابتسم المعلم عزت وأصدقاؤه ونظر كل منهم للآخر ،وفهمت ما كان يفعله المعلم عزت فى فيلم الشعلة.. كان بيلقط رزقه.. حيث الزحام الرهيب حول الفيلم الهندى.. كان ينشل الجمهور.. وقد حقق الشنتورى إيرادات من فيلم الشعلة، لا تقل بأى حال من الأحوال.. عن إيرادات فيلم الشعلة.

أحب البصل.. أحبه بجنون.. أحبه أخضر وأحمر وبنى.. وعلى كل لون أحبه مطبوخا ومشويا ومسلوقا.. أحبه فى السلطة وفى الشوربة وفى التقلية.. أحبه بجوار الفول.. وأحبه جنب الجبنة.. وأخرطه شرائح على طبق ملوخية يا روحى.. أما أجمل الطرق التى أحب أن أتعامل بها مع البصل.. هى أن أدشه.. والدش لمن لا يعلم من جيل الفيديو كليب هو أن تهبد البصلة بوكس بيد مقبوضة.. وتعطيها لكمة رائعة.. فتنكسر البصلة ويبرز لك قلبها الأبيض الناصع.. فتنفتح نفسك للأكل فورا.. وتمد يدك وتضرب لك لقمة من أى حاجة قدامك، ثم تتبعها علطول بقطمة محترمة من فحل البصل.. يا عينى..

ولاشك أننى اكتشفت بعد هذا العمر الطويل أننى لم أكن أكل أى صنف من أصناف الطعام من أجل الشهوة، أو لأننى نفسى فيه ولا حاجة.. وإنما كنت باكل فقط عشان خاطر البصل.. فكمية البصل التى أمامى هى التى تحدد المدة التى سأجلسها أمام الطعام.

وللحق كنت أدوس فيها، مهما كانت كمية البصل

زى أكل الحمير فى النجيل، لا الحمار يشبع ولا النجيل يفرغ، ولقد أزعجنى هذا النفور العجيب من الناس للبصل، فإذا أكلت منه تتأكد أمى أننى لن أقابل أحد النهاردة.. ولن أسلم على أحد.. وتعطينى اللبان والنعناع حتى تظل علاقتى الودية بالآخرين مستمرة..

ولكن يا أعزائى أليس هذا البصل هو نفسه الذى بنى تلك الأهرامات الخالدة فى الجيزة.. ألم يكن هوالطعام الوحيد للعمال المصريين، الذين حركوا هذه الأحجار المهولة، وبلغوا بها عنان السماء.. ثم أليس فحل البصل هذا هو السبب فى تلك الفحولة المصرية، التى لم تستطع هيئات اليونسكو واليونسيف أن توقف هذا الفيضان السكانى الرهيب..

فى فترة الخطوبة، حاولت أن أمهد لزوجتى حتى تتقبل عشقى للبصل.. وحتى يكون الزواج على نور، قلت لها يا عزيزتى أريد أن أعترف لك بشىء حتى لا أخدعك، قالت فى توتر عارفة ح تقول إيه.. ستحكى لى عن ماضيك الأسود.. قلت لها لا.. وإنما سأعترف لك بالماضى الأخضر.. أنا متيم بالبصل، فإذا كان هذا سيضايقك.. قولى لى من الآن حتى أحاول أن أعالج نفسى منه.. ابتسمت فى سعادة وأغرورقت عيناها بالدموع.. دموع الفرح طبعا

مش دموع البصل.. وقالت: إنت الإنسان الذى أبحث عنه طول عمرى كانت هى الأخرى عاشقة للبصل.. يا محاسن الصدف.

وتزوجنا وظل البصل هو الذى يجمع بيننا حتى فى أيام الزعل التقليدية، نجلس متجاورين أمام الطعام، وكل واحد ضارب بوز ومش طايق التانى.. وأقوم أنا كالعادة كرب أسرة محترم بأن أفتتح الطعام بدش فحل بصل حكاية، وأضعه بجوارى تحت سيطرتى متجاهلا إياها تماما، وأشعر أنها تتساءل فيما بينها وبين نفسها ومال الزعل ومال البصل بأه.. ثم تغالب كبرياءها وتقول لى بلهجة آمرة.. هات حتة من البصلة دى.. وأغيظها ولا أرد.. وأنا أعلم أنها صارت مدمنة مثلى، ثم أرق لها وبحرص شديد أعطيها فتفوتة صغيرة من البصلة هنا يفيض بها وتخطف البصلة كلها، وأحس أننا داخلين على زعل جامد بأه.. والموضوع ح يكبر.

والأمثال الشعبية ظلمت البصل ظلما بينا.. فما معنى بصلة المحب خروف؟! ولنفرض أن هذا الخروف أمامى الآن.. كيف أمد يدى وأتذوقه حتى دون تلك البصلة التى ظلمها المثل، والتى دونها لايصبح للخروف أى طعم أو معنى..

ومثل آخر يقول يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا معرفش إيه.. سنوات وأنا أدش البصل ولم يَنوُبنى هذا المعرفش

إيه.. ثم هل تنكرون أنه علاج لكافة الأمراض.. عندك برد كُلَّ بصل.. عندك أنيميا كُلَّ بصل.

كنت فى الصعيد وقال لى الحاج حسن وهو جالس بجوار مجموعة من أصدقائه... كان عندى سكر يا أستاذ يوسف.. جالولى علاجك البصل ستين يوم فطار غدا عشا.. تاكل بصل وجبل ما تنام وأول ما تصحى.. تصدج بالله آدينى ماشى ع الوصفة.. الدوخة راحت والتنميلة راحت ونشفان الريج راح.

وفجأة وجد الحاج حسن نفسه وحيدا فكل الجالسين بجواره راحوا هما كمان.. تركوا القاعة جريا من ريحة البصل.. طبعا فالحاج .حسن صار أشبه ببصلة تقريبا، إذا نظرت إلى تدويرة الوش والخدين.. كما أنه يعرق بصل ويتنفس بصل.. ولذا كانت جلستى بجواره فاتحة للشهية لأقصى درجة.. وكلت أكل ليلتها!! صدقونى ليس بالكافيار والسيمون فيميه يعيش الإنسان... كلما أحببت شيئا بسيطا، صارت الحياة رائعة.. فلا يصح أن تكون المنظرة فى الأكل كمان.

وآه يا خوفى على هذا الجيل الذى يعيش على أكلات كلها بالإنجليزى يعنى تاخد كورس فى الجامعة الأمريكية قبل ما تأكل عشان تعرف تنطق إنت عاوز إيه.. وتجد الشاب من دول طول

بعرض.. ما شاء الله.. جتة.. ولكن إذا جاله شوية برد يقعد شهر نايم.. مثله مثل الفراخ البيضا ريش على مفيش.. ولذا يتساءل الناس لماذا لم نعد نرى أبطالا فى كل المجالات.. لا بطل رياضى ولا بطل فى الفن ولا فى الأدب؟! والإجابة سهلة خالص لأن السيد كنتاكى والأخ ماكدونالد والكابتن آربيز لا يصنعون أبطالا، والسبب الآخر الذى لا شك فيه أنهم لايأكلون البصل.. أليس كذلك؟

قلت له مندهشًا: الله!! أُمال فين الدبلة؟! فأجاب فى حسرة ماخلاص بأه مش فكيت، قلت له لا حول ولا قوة إلا بالله.. ليه يا بنى ده انت كنت بتحبها، قال لى فى خجل مثل طفل بالل هدومه.. أصلها ضبطتنى مع واحدة ثانية.. قاعدين فى كازينو، وكنت مفهمها إنى رايح أعزى فى أبو واحد صاحبى، قلت له سعيكم مشكور.. ولكن كيف ضبطتك.. قال إعلم يا صديقى أننى راجل نحس.. العين مش سايبانى.. ماروحش حته مع واحدة إلا لما تلاقى حد طالع لى.. على رغم من إنى حريص جدًا فى تصرفاتى.. وأنا مثلا ساكن فى مصر الجديدة لكن ما أقابلش واحدة غير فى آخر الهرم؛ كى أبعد قدر المستطاع، ومع ذلك بمجرد أن جلسنا فى الكازينو وجدت خطيبتى أمامى.. واللى غايظنى إنها كانت رايحة هناك بالصدفة.. فيه حظ كده فى الدنيا..

قلت له: ولماذا لم تدافع عن نفسك.. قال لى لم أجد شيئًا أقوله.. قلت له هنا الخطأ يا عزيزى.. يجب أن يكون ذهنك حاضرًا فى مثل هذه المواقف.

وهناك وسائل دفاعية حينما تضبطك خطيبتك متلبسًا

مع واحدة تانية.. قاللى قول يا صديقى.. إنت كنت فين من زمان.. قلت له نأكل لقمة فى الأول مع بعض عشان دماغى تشتغل، ونحن على مائدة الغداء فى المطعم الأنيق، قلت له شوف.. أول طريقة للدفاع أنك تقول لها فى صوت به وقار.. عزيزتى دى تبقى خطيبة كمال صاحبى، وكانوا زعلانين مع بعض وكمال فوّضنى أصلح الموضوع.. وأنا كنت بأقنعها ترجع له.. وبعدها يجب عليك الاتصال بكمال فورا واطلاعه على الموضوع، حتى إذا أرسلت هى فى استجوابه يكون حافظ صم، ويفضل أن يكون فاهم مش حافظ.. هذه طريقة..

ناديت على الجرسون وقلت له.. شيل الكباب مش حلو.. هات لى ورق عنب.. وصديقى يكز على أسنانه من الغيظ، ويقول فى زهق، والطريقة التانية.. قلت له: إنك تقول لها يا حبيبتى أنا خبيت عليكى.. دى واحدة.. واحدة كنت أعرفها زمان، وجاى أنهى العلاقة معاها علشان ما أحرجكيش.. ده جزائى إنى بحافظ على شعورك.. إيه رأيك فى دى بزمتك..

وناديت على الجرسون قائلا.. ورق العنب نىّ.. مفيش جمبرى حلو كده.. قال لى صديقى المسكين.. ده رابع طلب تطلبه.. إيه.. هو استخسار.. قلت له بقولك إيه إنت كده ح تقلقنى

منك.. خلينى استرسل فى الكلام.. والا أقوم.. قال لى لأ.. أقعد بس كمل واستطردت قائلاً: أما إذا ضبطتك وأنت ماسك إيدها.. لو فى وضع عاطفى.. عليك بالحل السينمائى.. قال لى ما هو الحل السينمائى، قلت له.. كنت ح تعمل إيه من غيرى بس.. الحل السينمائى.. أن تقول لها إن هذه البنت هى أختك فى الرضاعة وانكوا ما تجوزوش لبعض.. وإن عندهم مشاكل، ولا يمكن أن يقف بجوارها غيرك باعتبارك أخوها، وأنها كانت بتقولك كلمة سر فى بُقَّك.

وصفقت للجرسون.. واحد عصير مانجة شوب كبير.. قال صديقى وهو يتأمل فى أسى شوب العصير الموضوع أمامى.. وإذا لم تفلح كل هذه الطرق.. قلت له هناك طريقتان لا ثالثة لهما.. إما أن تدعى الجنون مثلما فعل عبد الفتاح القصرى حينما ضبطته زينات صدقى مع كيتى.. وَتَحْوِلْ عينيك وترقص فى وسط الخلق وتغنى قلعنى القميص اللبنى.. لبسنى القميص اللبنى.. وهذا سينقذك مؤقتا من الموقف.. والطريقة التانية.. هى التناحة بأن تقول لها فى بجاحة وجبلنة.. آه أعرفها.. عاوزه إيه، ويمكن أن تلقى باللوم عليها لأنها السبب فى انحرافك، وأنها لولا ما هى حارماك من الحنان اللى أى راجل يتمناه ماكنتش روحت للسكه دى.. وهنا أنت

تستعديها على الأخرى الجالسة بجوارك، وتصبح أنت الضحية بينهما.. هه!!

ناخد اثنين شاى بالنعناع بأه نحبس الكلام ده.. قال لى معجبًا، ولكن كيف عرفت كل هذه المبررات يا صديقى الأروبة.. قلت له.. هذا الشعر لم يشب أونطة يا عزيزى.. قال لى إذًا حدث لك هذا الموقف قبل ذلك.. قلت له يووه.. مفيش مرة خرجت مع واحدة وما انظبطتش.. قال لى ماذا كان تصرفك.. قلت له.. بلّمت طبعًا أنا قدرت أنطق.. قال وهو فى شدة الاندهاش.. وكل هذه النصائح لم تفعل أيا منها، قلت له هو الراجل مننا بيبأه فيه دماغ.. أنا باكلمك دلوقت ع الهادى ومريح وباشرب شاى بالنعناع. ساعتها الواحد ما بيلحقش يفكر. قال لى صديقى فى غيظ بأه لأ.. وجاء الجرسون، فإذا بصديقى الندل يقول.. الحساب عند البيه هنا. وأذهلتنى الصدمة.. فليس معى ما أدفعه.. ماذا أفعل فى هذه الورطة؟! هنا قال لى صديقى.. بسيطة.. أعمل زى عبد الفتاح القصرى.. أو استخدم التناحه.. قول للجرسون.. مش دافع.. عاوز إيه.. اعمل اللى تعمله.. وتركنى وأطلق ساقيه للريح..

يدخل غرفة الماكياج.. ويجلس أمام المرآة.. بجواره الماكيير.. يبدأ أولا بوضع أساس الماكياج على وجهه ليخفى ذقنه المنبتة.. ثم يضع البودرة الحمراء على الخدين.. والشفتين يضع عليهما الروج الأحمر الزاعق.. ثم يطلب منه الماكيير أن يضم شفتيه.. تتحرك يد الماكيير إلى العينين.. فيضع الآى شادو والمسكرة.. ويرسم العين.. ويتأمل الوجه.. ثم يضع حسنة تحت الذقن.. وبعد أن يضع له حلق متدلى كليبس؛ لأن أذنه غير مخرومة.. يحضر الباروكة الحريمى.. ويثبتها على الرأس.. ثم يقف مجاملاً.. الله يا أستاذ.. قمر والله..

وكل هذا ليس كافيا لنقله من النوع ذكر إلى النوع أنثى.. أشياء أخرى إضافية يجب أن تتم ولكنها مهمة.. تضاريس الصدر تحتاج إلى لمسة.. لا.. هى تحتاج إلى أكثر من لمسة.. لنقل إنها تحتاج إلى لمستين..

وبتركيب الصدر الصناعى.. نكون قد قطعنا نصف المشوار.. النصف الثانى من المشوار ما هو إلا مخدتين

صغيرتين تمثلان الأرداف.. هكذا أصبح الممثل امرأة.. وليس عليه سوى الأداء.. قليل من الدلع والتثنى والتخاطر.. وترفيع الصوت.. هكذا يضع الممثل اسمه فى قائمة الرجال الذين قاموا بأدوار ستات..

أذكر أن أبى رحمه الله قال لى.. إن فيلم اسماعيل ياسين الآنسة حنفى حينما عرض بالسينما كان بالضرب.. كل الناس تريد أن تراه وهو يؤدى دور امرأة، وفعلها مرة ثانية إسماعيل ياسين.. حينما قام بدور عمته فى أحد الأفلام، التى جاءت تبحث عن ابن أخيها أرنب.. وكانت عمته (هو نفسه) فى الفيلم عجوز شمطاء فى منتهى خفة الدم..

وبالمناسبة لقد أتيح لى أن ألتقى بعمة إسماعيل ياسين الحقيقية فى لقاء تليفزيونى فى السويس.. والشىء العجيب أنها كانت صورة طبق الأصل من عمته التى مثلها فى السينما.. التقاطيع نفسها والملامح.. والبُقْ أيضًا لدرجة أننى شعرت أنها متأثرة جدًا بأدائه لشخصيتها فى الفيلم أكثر من تأثره هو بها.

وبشارة واكيم فعلها هو الآخر.. وقام بدور امرأة بلدى جميلة.. تدخل حمام السيدات.. وإن كان الريحانى لم يفعلها.. ربما لأن

شخصيته كان بها بعض الوقار، الذى يتعارض مع الشكل الكوميدى الفارس لرجل يمثل دور امرأة..

أما فؤاد المهندس فقد مثل دور امرأة مرتين إحداهما كان ليس امرأة فحسب، وإنما رقاصة بلدى ببدلة رقص ترتدى البرقع الذى يخفى خلفه شاربها الشهير..

والذى تفوق على الجميع فى رأيى وربما على الستات أنفسهن فى دور المرأة.. هو الراحل العبقرى عبد المنعم إبراهيم، حينما قام بدور فتافيت السكر هانم.. وكان يتنافس على حبها اثنان من أعظم ممثلى الكوميديا.. القصرى وحسن فايق..

وبعد ذلك صارت حيلة الرجل المرأة هذه من الحيل المضمونة تمامًا لتفجير الضحكات.. وطلع ثلاثى أضواء المسرح؛ لنرى سمير غانم يؤدى دور المرأة الرهيبة التى أكلت ذراع جوزها فى ليلة الزفاف.. (سوسن) واسم الدلع فوزى.. وسمير يؤديها ببساطة وطبيعية.. ويهرب منها كل الناس فى الفرح.. من أول العريس والمعازيم.. حتى أبوها شخصيًا ينشف من فرط الرعب حينما تقترب منه (فوزى).. ويقول لها.. اقعدى.. اقعدى يخرب بيتك..

وكانت هذه الشخصية علامة ونقطة تحول فى حياة سمير.. أما جورج فيقدم لنا امرأة طيبة وشعبية وجميلة جدًا والله.. تشبه

أمهاتنا.. فى حنانها وتدليلها لنا.. الواد خلى بالك منه لو عيط تضحك وتلاعبه..

أما عادل إمام فقد قدم لنا امرأة خاصة جداً.. وهى برغم دمامتها إلا أنها تحمل شعار.. يتمنعن وهن الراغبات.. وتمنع امرأة يمثلها عادل إمام كان يفجر الضحك بشكل صارخ..

ولم يفوِّت محمد صبحى هذه الحيلة الدرامية.. بل كررها فى أكثر من مسرحية، وإن اختلفت كل امرأة قدمها عن الأخرى.. فمثلاً (عطيات) فى الجوكر.. تلك المرأة التى ضد الجاذبية.. وارمة من كل حتة.. وحينما تمشى تشعر أنها تسير على سطح القمر.. إنها لا تمشى أفقيا مثلنا.. وإنما تتحرك إلى أعلى.. وهى ندابة ومعددة وشعبية إلى حد كبير..

وحينما حاول أن يمثل صبحى امرأة ثانية.. لم يكرر نفسه وإنما أخرج من صندوقه امرأة ثانية.. سيكسى.. مثيرة.. مودرن إلى حد ما.. وإذا استعرضنا المرأة الرجل فى السينما والمسرح سنحتاج إلى صفحات.. أحمد بدير ويونس شلبى وأحمد آدم ونجاح الموجى وسيد زيان ومحمد نجم.. إذًا هى ظاهرة كل ممثل كوميدى فى فترة من حياته ارتدى ملابس امرأة.. لماذا؟!!

وهل حدث العكس؟! نعم حدث عدة مرات.. ارتدت امرأة

ملابس رجل، ووضعت شاربًا ولمت شعرها.. ولبست بدلة وكرافاتة.. ولكن يا أخى.. لا أعلم لماذا.. حينما يرتدى الرجل ملابس امرأة.. نموت من الضحك.. مهما تكررت أشكال التناول للشخصية.. بينما حينما ترتدى امرأة ملابس رجل.. تبقى دمها تقيل وَسِمْ.. وهى بتتخن صوتها وتقلد الرجل فى مشيته؟! لماذا..

فى رأيى أن الرجل حين يمثل دور امرأة.. تضحك النساء لأنها تشعر أنها بالتأكيد أحلى منه، وضحكها هنا نابع من سعادتها واطمئنانها على نفسها.. كما أن الرجل فى تمثيله لدور المرأة يكشف بعض الأوراق التى تظن المرأة أن الرجل لا يعرفها.. فتجد نفسها أحيانًا أمام نفسها، ولكن بصورة مبالغ فيها ويضحك الرجال على رجل يرتدى زى امرأة.. لأن هذا يعمق شعورهم برجولتهم.. فهو يسعد أنه ليس فى موقف البطل.. وإنه راجل كُمَّل وموزون.. كما يضحك ساخرًا من عبطه لاستجابته للمفاتن الأنثوية المزعومة.. ويقول لنفسه.. لأ.. أنا موضوع تانى خالص.. وبعدها بقليل ينهار أمام أول امرأة حقيقية يقابلها.

طيب.. والمرأة حينما تمثل دور رجل.. لماذا لا تضحك النساء معها؟! لأن الرجل فى خيال المرأة أجمل بكثير من هذه الصورة

الضعيفة منه.. ولأن المرأة لا تستطيع التخلى عن أنوثتها مهما ركبت شاربا أو ذقنا. فعلتها حتشبسوت نفسها حينما حكمت مصر؛ لتقنع الناس بأنها قد المسئولية، ومع ذلك لم تنس أن تضع آيلاينر وكحل ومسكرة، وترسم عينيها برغم الشارب والذقن المتركبين.. طيب ياحتشبسوت إنتى فى إيه والا فى إيه!!

أما الرجل فلا تضحكه المرأة التى تؤدى شخصية رجل.. لأنه لايصدقها.. ربما لأن التكوين الجسمانى للمرأة من الصعب التحايل عليه مهما حدث.. فتصبح الحيلة بلدى ومهروشة.. بتخبى إيه يا ماما، فتحويل رجل لامرأة يحتاج إلى إضافات.. وهذا جائز.. أما تحويل امرأة إلى رجل فيحتاج إلى بتر وهذا مستحيل..

ولكن.. هل هذه الحيلة الفنية لاتزال مضمونة إلى النهارده؟! أشك.. لأن نجاحها فى السنوات الماضية كان يعتمد اعتمادًا كبيرًا على التناقض الحقيقى بين سلوكيات المرأة وسلوكيات الرجل زمان، فإذا جلس عادل إمام (مرتديا شخصية امرأة)، وضم رجليه فى خجل وأنزل الجيبة قليلا ليخفى رجليه.. كنا نموت من الضحك.. لأن هذه كانت حركات بنات زمان.. جيل الروشنة بقى موضوع تانى..

دخلت أمامى فتاة ترتدى الجينز والبودى الذى هو الزى الرسمى العسكرى لبنات هذا الجيل.. طلبت شيشة وجلست فى بجاحة.. نصف متر بين رجلها اليمين ورجلها الشمال.. ووجدتها تزغد رفيقها فى كتفه وتكلمه بطريقة سوقية.. فالسوقية أصبحت موضة يا جماعة.. ورفيقها حكاية هو الآخر.. ينسدل شعره على كتفه فى ذيل حصان ويضع فردة حلق.. لأ.. لأ يا إخواننا.. لن تنجح هذه الحيلة المسرحية بعد ذلك.. لن يمثل رجل شخصية امرأة.. ولن يحدث العكس.. طالما أن هذا يحدث بالفعل.. على مسرح الحياة.

بكل روح رياضية ونفس مسامحة أعلن لكم هنا أيها الطاقين الأعزاء تنازلى عن عرش الطقطان الذى وضعتمونى عليه.. فإذا كان ولابد أن أكون طاقطا.. فيكفينى يا جماعة أن أكون مواطنا طاقطا عاديا مُخليًا مكانى لأى طاقق منكم يأتى ويتولى هو المسئولية.. مستعيرا من الزعيم عادل إمام جملته الشهيرة.. «أنا ح أمسك حتة قد كده».. تغور المناصب على اللى بدعها..

إن ما يحدث لكلينتون الآن على مرأى ومسمع من الدنيا كلها لا يساويه إلا فضيحة المتطاهر فى باب الخلق.. أتخيل نفسى جالسا معه على جنب وأقول له فيه إيه يا كلى.. ما كنت قاعد ومروق وميت فُلْ فى ولاية أركانسو.. ولاية محندقة.. والعيال كلهم بتوعنا.. إيه اللى ودَّاك البيت الأبيض بس.. وبعدين مادام حصل وركبت واترستأت.. أنا لو منك ألم النسوان اللى عرفتها كلها ونراضيها وكل واحدة تاخد عرقها وتتكل على الله، أنا مش بأَطَّمك.. أنا حاسس بيك وإوعى تفتكر إن هيلارى مراتك اللى واقفة جنبك

وقفة الرجالة دى مرتاحة!! تلاتة بالله العظيم الولية دى جبل.. إنما ح تعمل إيه.. انتوا مقرور عليكوا ومنشوشين عين.. وحد حاطط لك عمل فى الفستان بتاع مونيكا.

وأتساءل فى دهشة بينى وبين نفسى.. لماذا كل هذه الهُليلة؟.. ما على رأى عدوية.. كله على كله.. هية جات عليك إنت.. التور لما يبقع بتكتر سكاكينه.. باولا جونز رايحة تشتكى وتلطم وتِسَيَّح فى كل حتة.. قال إيه.. إنت بعثت لها المساعد بتاعك فرنر ستون، وقال لها الباشا عاوزك فى كلمة.. وهيه جات لا فى دماغها حاجة ولاواخدة خوانة تلاقيك مستنيها فى الأوضة.. لابس تى شيرت بس وحتى مش لابس شراب ومن غير كلمة ولا حدوتة ولا ملاغية.. تتحرش بيها كده.. وإنت عارف باولا يافى الحلال يا تلوشك.. طيب اكتب ورقة عرفى.. مادام مزنوق.

وبعدين ما عجبنيش ردك ياكلى.. بقى بتقول إن ما تدعيه باولا لايمكن إثباته لأن إذا حدث شىء بين اثنين داخل غرفة مغلقة لا سبيل لإثبات أنك أجبرتها عليه.. ده كلام برضه.. دى باولا لبط.. ووشها مكشوف.. آهى طلبت الكشف عليك ومطابقة الكشف بالتفاصيل الدقيقة التى ذكرتها فى جسمك.. وقالت ع الوحمة اللى فى رجليك.. والحسنة.. ورطرطت بالكلام.. وعليه

الطب الشرعى هياكل عيش عليك.. وخد بالك.. ح تنف فى منديل حيتاخد ويتحلل..

ويا أخى زى ما تكون المصايب بتيجى ورا بعض.. لسه ماخلصتش من باولا ورزالتها تطلع لك مونيكا.. ده ولا فيلم «الزوجة ١٣».. ومونيكا بقى معاها بلاوى.. صور وجوابات وشرايط وفستان من ساعة ما اتقلع يوم الليلة إياها ببوشه لا راح مغسلة وشايلاه للذكرى.. ومسجلالك ع الأنسر بصوتك وإنت عايش وهيمان يا سيدى.. مونيكا.. أنا آسف.. وحشتينى... والصور كمان فضيحة.. بصات ونظرات وعلى رأى الشاعر.. الصب تفضحه عيونه وبعدين..

والعمل.. نجيب مونيكا ونتفاهم معاها.. ومونيكا قريبة مش زى باولا.. المهم الرأى العام.. كلمتين حلوين للناس فى التليفزيون ونشوف مصالحنا اللى واقفة دى.. تلاتة بالله العظيم ما بعنا حاجة من صباحية ربنا.. يختلى به صديقه هارى تومسون وده زميل.. وشغال فى الفن، وكان مقدم على منتج منفذ من التليفزيون.. يقول له هارى تومسون.. عاوزك بقى لما تطلع تكلم الناس تحرك إيديك وجسمك وتخبط على الترابيزة.. عينيك.. مهمة قوى فى أدائك.. الصدق والانفعال مهم قوى فى التأثير على الجمهور.. لازم الناس تحس إنك برىء من التهمة براءة الذئب من دم بن يعقوب..

ماشى.. أشوف ده تانى وبعد البروفة.. يصفق تومسون إنت كده مية مية.. اتّكل على الله..

ويختلى به أخوه روجر.. ويدس فى يده دولار فضة قديم كان ملكا لجده كلينتون الكبير.. ويقول.. حط ده فى جيبك.. ده متجرب.. واستحمى بمية رِجْلة.. وح تشوف النتيجة..

ويعلن كلينتون للجنة التحقيق وعلى رأسها المحقق الجامد ستار إنه سيدلى بشهادته على شريط فيديو، بعد أن أرسل له «ستار» أكثر من مرة ضبط وإحضار.. ولكنهم لاغوا الصول اللى رايح يعمل الكبسة.. وطلعت له الشغالة على باب البيت الأبيض.. وقالت له.. كلينتون مين يا حاصول مفيش حد هنا بالاسم ده.. وراحت مطبقة له البريزة فى إيده.. كان كلينتون وقتها واقف وراء الدولاب يرتجف من الرعب.. وطلع بعدها وقال للشغالة.. الصول مشى!!

هكذا أكبر وأقوى رجل فى الدنيا يرى الأمرين من اتنين ستات حطوه فى دماغهم وهو ليس أول واحد..

إنها لعبة قديمة تجيدها المرأة من زمان أوى.. ألم تذهب أول امرأة فى الدنيا إلى قابيل وقالتله أخوك هابيل اتحرش بيا.. وحرضته على قتله إلى أن انتظره صباح يوم، وهو خارج من كوخه قاصد كريم.. وراح داخل فيه بالموتوسيكل دَشْدِشُه..

لم يسألها قابيل يومها ألم تشجعيه على التحرش بيكى.. لأن البراءة التى فى وجهها منعته من السؤال.. ثم أنها كانت ترتدى ورقة توت كاملة «شتوى».. يعنى مش لابسة خفيف ولا حمالات..

ومثل هابيل ضحية الوشاية النسائية.. شمشون الجبار الذى كان ذكر اسمه يرعب أعتى الرجال وأكثرهم بطشا.. من الذى جاب داغه.. دليلة.. عرفت مصدر قوته شعره الكثيف المنسدل على كتفه.. اقتربت منه فى أنوثة ودلال وقالتله.. شفت حلقة حسام حسن.. تِهْبل.. يخرب عقله.. يجنن.. ولكى يحظى بإعجابها المسكين.. جابه ع الزيرو.. كأنه عسكرى مستجد وضاعت قوته وتهدم المعبد على رأسه..

وأخطر شىء فى المرأة فى رأيى - ليس فى مفاتنها وأنوثتها وجمالها الساحر.. أخطر حتة ربنا لا يوريكوا هى رأسها.. عقلها.. ففى رأس المرأة ناشنكاه كالبندقية.. تضبط.. تلف القرص.. تعدل وضع سن نملة الدبانة.. إلى أن ترى علامة (+) على الهدف المنشود..

ويصرخ قلبها الصارم الذى لا يعرف رحمة.. اضرب.. طاخ.. آى.. فى ثانية تتحول حضرتك إلى مشاويرجى الست.. النهارده عند بتاع الموبيليا.. بكره عند السيراميك وبعده الستاير..

وشبكة ومهر.. وهى تبتسم فى سعادة وهى ترى الفريسة تفرفر بين يديها..

والمرأة لن تعدم حيلة حتى بعد أن اخترع الأمريكان الفياجرا كمحاولة لرد اعتبار الرجل الأمريكى أمام جبروت زوجته، وبات الرجال فى أمريكا يحلمون بزوجات منكسرات لا يفتحن فمهن.. وبدأت اللغة الأمريكية تستعير من عندنا فى الصعيد أمثالا شعبية مثل «ضل راجل ولا ضل حيطة».. وخذ الترجمة عندك A shadow of a man better than a shadow of a Hita، وبدأت المرأة الأمريكية تعد نفسها لدعك رجلين جوزها فى ماء وملح، ولم يكد الرجال يفيقون من حلمهم الخرافى.. قامت المرأة برشوة العلماء.. ليعملوا فياجرا جديدة نسائية.. يا نهار أسود يا جدعان.. هيه ناقصة.. هية الرجالة ملاحقة، وبدأت موضة التحرش الجنسى فى العالم الغربى المؤدب المتربى أحسن تربية، والتحرش لا يعنى مد الإيد.. إطلاقا.. إنه يبدأ ببصة العين.. ممكن تبص بصة توديك فى ستين داهية.. فالقانون فى أمريكا اللى يبص لك بعين تبص له بالاتنين، وتلاقى باولا ع الشمال ومونيكا على اليمين..

صعبان عليا كلينتون.. أنا مقدر موقفه.. زمانه قاعد دلوقت، وحواليه كتاب سيناريو وشغالين فى الشهادة التى سيسجلها أمام

كاميرات الفيديو؛ ليدافع عن نفسه أمام الرأى العام.. عقول تشتغل وتفكر والإعلام لعبتهم.. أنا مش عارف ما بعتوليش ليه.. عموما أنا من هنا باعتله سكريبت لو عجبه أنا مسامح فى أجرى..

أتخيله جالسا فى أدب وأمامه رغيف عيش بلدى يبدأ حديثه بأن يقطع الرغيف نصفين ويقسم للناس.. عليا النعمة من نعمة ربنا.. والنعمة الشريفة دى أنا لا تحرشت بدى ولا دست على طرف دى.. الناس مش سايبة حد فى حاله.. وأنا عندى الدليل على كلامى.. واسألوا هيلارى.. هنا تنقطع الأنفاس والكل محدق فى وجه كلينتون.. فى انتظار الدليل الذى سيقلب القضية رأسا على عقب.. يتنهد كلينتون ويقول.. الدليل أهوه قدامكوا.. أنا ماليش فى النسوان.. ماشى يا خال!!

فى السنترال وقف طابور طويل من الخلق.. جاءوا ليدفعوا فاتورة التليفون.. الوجوه مكفهرة والعالم زهقانة ومش طايقة روحها.. لقد تكلمت ورغيت وبغبغت عامًا كاملاً وجاء يوم الحساب.. إدفع بأه..

وضربت المكالمات العاطفية رقمًا قياسيًا فى عدد المكالمات ومدتها.. فإذا أحببت واحدة فأنت مطالب بأن تكلمها كام مرة على الأقل فى اليوم فى ربع ساعة.. شوف إنت بأه.. هذا فى الظروف العادية، أما فى أيام الخصام والشك والغيرة تصبح المكالمات مثل مسلسلات التليفزيون.. بالساعة..

والمرأة تعشق الكلام فى التليفون فى الفاضية والمليانة.. وتتخلل المكالمات العاطفية لحظات طويلة من الصمت الرهيب.. ألو.. (صمت) ألو.. (صمت) الله!! إنتى نمتى؟

فترد فى هيام.. لأ.. سامعاك.. كمل.. أصلى كنت سرحانة شوية.. والسنترال لا يرحم.. إنه يحسب الوقت بلا رأفة.. هل تذكرون فيلم الوسادة الخالية.. ضاعت نصف ميزانية الفيلم فى المكالمة التى

بين عبد الحليم وبين لبنى عبد العزيز.. فالبطلة نائمة على السرير والتليفون فى حضنها.. وتكلم عبد الحليم فى البيت.. صلاح.. أنا سميحة.. وعبد الحليم يرد.. سميحة أنا صلاح.. ولا سميحة راضية تقفل ولا صلاح عاوز يقفل، والمنتج فقط هو اللى ح يقفل.

ولم يقتصر دور التليفون فى الأفلام على المكالمات العاطفية فقط، فليس هناك أشهر من المكالمة التى أبلغ فيها الأب بنتيجة ابنتيه فى الثانوية العامة.. ألو.. ألو إحنا هنا ونجحنا أهوه فى المدرسة، وينشرح قلب الأب حسين رياض، ويعطى التليفون لعمر الحريرى ولكن البنتين تصران على تقديم تقرير وافٍ بالمواد التى نجحتا فيها.. الإنجليزى سيبك منه.. تقع قارة أوروبا على شمال كوبرى القبة وبعد المزلقان. أما أخوات «كان» فإحداهن ربنا كرمها وتزوجت والأخرى اشترت جهازا بالتقسيط، ومع ذلك نجحتا بتفوق، وهذا يعطينا فكرة عن رأفة المصححين أيام زمان، ويعطينا فكرة أيضا عن رأفة النقد الفنى أيامها.. فلم يطلع ناقد يقول إن هذا يسىء إلى التعليم فى مصر وأن الأغنية تصيب الطلبة بالتخلف العقلى..

أما الأغنية التليفونية الشهيرة، التى تقول كلمته سمعت صوته وقفلت السكة تانى فكانت منطقية أيامها.

أما اليوم فبمجرد أن تضرب الرقم أتحسبت عليك مكالمة.

ومن فرط عشق المرأة للتليفون وضعته فى المطبخ.. فهى تريد أن تتكلم وهى تقشر البطاطس وتخرط الملوخية وتنقى الرز.. وكل دقيقة تقولك.. ثانية واحدة خليك معايا وتتركك ع التليفون بالربع ساعة (والسنترال شغال طبعا)، ثم تعود وتقول لك سورى معلهش أصلى كنت بأقلب الكيكة لحسن تتحرق.. هه!! كنا بنقول إيه؟..

ولم تكتف صاحبتنا بالمطبخ، فوضعته فى الحمام أيضا.. فهى تأخذ حماما وتكلمك فى الوقت نفسه.. فتمسك الشامبو بإيد وبالإيد الأخرى سماعة التليفون، وبينما أنت تسمع صوت خرير الماء تسمعها تقولك فجأة.. ثانية واحدة.. خليك معايا.. نصف ساعة وتعود لتقولك معلهش أصل الصابون دخل فى عينى.. كل ده والعداد بيعد..

وكثير من قصص الحب والغرام بدأت بمعاكسة تليفونية.. ولا أنسى ذلك الصوت الدافئ الحنون، الذى تعرفت عليه فى مكالمة تليفونية بطريق الخطأ، ونمت بيننا صداقة سمعية «والأذن تعشق قبل العين أحيانا»، وجاء يوم اللقاء فذهبت إليها وكلى أمل وتفاؤل بالحياة، تأملت ملامح وجهها فوجدت أنها تستطيع بسهولة أن تملأ الفراغ، الذى تركه الراحلان المليجى والدقن على شاشتنا الفضية..

ولى صديق تليفونى النزعة فهو موهوب فى الرط والحديث فى

التليفون وكأنه مولود فى سنترال الهرم.. إنه يضبط حديثه بصورة هائلة.. يرتب الجمل.. يتنهد فى أوقات معينة.. ثم يصمت.. ثم يأخذ نفسا.. وعنده لازمات أو (استمبات) تتكرر، ولا تخيب معه أبدًا، وعنده القدرة أيضا على أن يهمس فى التليفون أكثر من ساعة وشفتاه تتحركان أمامك وأنت لا تسمع شيئًا.. وأسمعه أحيانًا يقول اللازمة الشهيرة.. إنتى عارفة مصر فيها كام تليفون؟ «اتنين مليون وستمية وأربعين ألف وخمسمية وعشرين».. تليفون منهم كان ممكن يريحنى..

قلت له يا بنى دى صلاح ذو الفقار قالها فى الفيلم.. بيصدقوك إزاى دول؟! فأجاب فى ثقة المهم الأداء.. وهذا الصديق نفسه إذا واجه حبيبته وجها لوجه.. يرتبك ويسقط فى يده، وتبقى خيبته تقيلة أَوِى.. لقد تعود على التليفون.

وصديقى الممثل الكوميدى صلاح عبد الله.. عنده عيب بسيط كده فى حكاية التليفونات.. فهو أثناء المكالمة زى الفن عشرة على عشرة.. كلمة ورد غطاها.. لكن حينما نبدأ فى إنهاء المكالمة تشوف معاه الويل.. أقوله طيب يا صلاح باى باى بأه.. فيرد.. طيب ياجو.. مع السلامة مع السلامة.. مع السلامة أشوف وشك بخير أبأى كلمنى هه.. يعنى ما تطولش كده يا راجل هه.. ح نشوف

بعض النهاردة ماشى.. ابقى عدى ع المسرح.. مع السلامة.. مع السلامة.. مع السلامة.. وأنا سأجن من الغيظ خلاص بأه ياصلاح.. باى.. باى.. فيرد.. طيب يا جو.. مع السلامة.. مع السلامة.. بقولك إيه.. نسيت أقولك حاجة مهمة.. والآ أقولك لما أشوفك بأه بالليل مع السلامة.. مع السلامة.. ولا حل مع صلاح عبد الله إلا أن أضع السماعة، وإلا سيظل أسبوعًا يقول لى مع السلامة.. مع السلامة.. مع السلامة..

فى الغرب بأه المكالمة التليفونية نص كلمة على رأى أحمد رجب.. وهناك أغنية شهيرة تقول

I Just Call To Say I Love you

يعنى أنا باتكلم بس علشان أقولك بحبك.. وخلاص.. يعنى مكالمة ماتكملش خمستاشر قرش.. وكما أن للتليفون جانبه الإيجابى من تسهيل الوصال بين المحبين.. فإنه له جوانبه السلبية فى تقليل الشوق والخيال الشعرى عند العشاق، فلو كان عنترة بن شداد يملك تليفونا لما كتب كل غزلياته الرائعة فى عبلة، واكتفى بأن يترك لها كل يوم رسالة على الأنسرماشين يقول لها فيها.. آلو.. عبلة.. أنا عنترة..

لقد ذكرتك والرماح نواهل منى

وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ثم يضيف واعبيل كلمينى فى البيت ولو مالقتينيش كلمينى فى تليفون الحصان.. بس إضربى فى الأول زيرو عشرة، وستكلمه عبلة فى البيت لتجد رسالة على الأنسرماشين يقول فيها عنترة.. ده صوت عنترة ابن شداد.. أنا غير موجود بالخيمة، أرجو ترك الرسالة بعد سماع صوت الجمل..

ما كدت أنزل من سيارتى حتى وجدت يدا تهبط على كتفى بقوة.. ثم ذراعين يحتوياننى، وعناقا حارا يحرمنى من تلك الأمنية البسيطة لواحد محضون على غرة مثلى.. وهو أن يرى ذلك الشخص اللطيف الذى يحضنه.. من صوته الأجش الذى ظل يكرر.. يابن الإيه.. واحشنى يا جو.. واحشنى.. واحشنى.. ومن عضلاته القوية.. وقبضته المحكمة على واحد هفتان مثلى.. تأكدت أن صاحب الحضن المفاجئ.. للأسف.. رجل.

ولما كان هذا الحصار العاطفى لا يسمح لى سوى أن أرى الشارع التانى.. فقد تراجعت بصعوبة.. خطوة للوراء.. كى أرى وجه من يحضنى..

ويالها من مفاجأة تصوروا من كان الرجل؟! لا أريد أن أضيع وقتكم فى التخمين.. إنه.. إنه.. لا أعرفه.. أول مرة أراه فى حياتى، نظر لى تلك النظرة، التى أتفق أن ينظرها الناس لمن يعرفونهم لمدة طويلة.. نظرة مليئة بالعشم واللوم والحب.. ثم

قال.. مالك.. بتبص لى كده ليه.. طارق حسنى.. مدرسة الأورمان الإعدادية.. تالتة أول.. قلت له: أهلا يا طروق والله زمان يا أخى.. كبرت «يابن اللذينة» ورحت خابطه فى كتفه.. فينك يا كلب.. واحشنى..

أجاب وهو يضع ذراعه فى ذراعى.. ويدخل معى المطعم.. هوه أنا ح أسيبك.. ده أنا ح أموت عليك.. أنا شايفك ومتابع شغلك.. ودايما أقول للمدام ده صاحبى.. ما تصدقنيش.. يا ستى والله صاحبى!! أبدا.. استنى لما أكلمها..

ألو.. يا صفاء.. تعرفى مين جنبى دلوقتى.. يوسف معاطى.. آه والله قابلته صدفة.. خذى أهوه معاكى.. ثم يهمس لى..مش مصدقانى..

أخذت السماعة وأنا لا أعرف ماذا أقول بالتحديد لصفاء التى لا تصدقه؟!.. والتى أكدت لى أن صوتى فى التليفون غير صوتى فى التليفزيون خالص..

المهم.. جلس طارق.. وصفق للجرسون، وأقسم ميت يمين أن يعزمنى على الغداء.. ثم مد يده نحوى بباكو لبان، وقال.. سَخَّن.. قلت له أنا لا أحب اللبان قال لى.. زى ما أنت يا عم ما اتغيرتش خد.. خللى ريقك يجرى قبل الأكل

وما أن مددت أصابعى لأتناول اللبانة.. حتى خرج من العلبة دبوس قوى قبض على أصبعى، وكاد يخرج الظافر وقد أحدث فرقعة كبيرة..

وكان صاحبى مسخسخ من الضحك.. وكاد يقع من فوق الكرسى حينما كنت أتألم من الدبوس والخضة.. وقال صاحبى.. أهوه أنا كده أموت فى الهزار.. بحبوح.. ما أحبش النكد أبدا ألاَّ إيه صحيح البرنامج اللى إنت عامله ده.. العيلة كلها تقعد تسح عياط.. مالك.. ده إنت قلبك خفيف قوى.. اشرب شوية ميه.. فيه إيه؟! ويضحك.. أتناول كوب الماء.. وبعد أن أشرب أبصق فى قرف ما هذا؟! الكوب مليء بالدود.. دود حقيقى يسبح فى الكوب.. وصرخت..

وناديت الجرسون وأنا أضع إصبعى فى فمى.. أبحث عن دودة.. وطارق منكفئ على وجهه وميت على روحه من الضحك.. وقال للجرسون.. امشى إنت مفيش حاجة.. وأخرج من يده بعض الدود المصنوع من البلاستيك، والذى ينفش فى الماء فيتحرك ويبدو حقيقيا.. ثم أخيرا.. قال.. والله لولا الواحد بيتفك مع نفسه شوية يا جو.. كان دماغ الواحد انفجر.. ثم قام

فجأة.. وقال.. اسمع.. إحنا نروح المكتب عندى، والأكل يجيلنا.. هناك دليفرى.. عشان نبقى براحتنا..

بعد نصف ساعة من محاولات التنصل.. كسب طارق الجولة.. وحلف بالطلاق لأنا رايح معاه.. وأخيرا.. ذهبت.. مع وعد أكيد منه.. أن يكف عن ألعابه الصبيانية هذه..

وفى الطريق أخذ يذكرنى حينما وضع فأرا فى حقيبة مُدرسة الإنجليزى.. وحينما دهن السبورة بالشمع وكهرب باب الفصل.. ياه.. الواحد كان رايق يا جو.. كبرنا يا أخى..

دخلت مكتبه الصغير.. الذى لا يبدو عليه آثار للعمل فى أى شىء.. وقال محرجا.. معلش حاجة كده على أدِّى.. لسه بأوضب.. على مهلى.. أنا أصلى ماحبش الاستعجال.

جلست وأنا ألعن حظى الذى زج بى أمام طارق زميلى فى تالتة أول.. ثم فجأة سمعت الباب الخارجى وهو يغلق.. ثم.. لا.. لايمكن أن أتحمل هذا العبث.. صوت المفتاح وهو يدور فى الباب.. ست تكات تركنى طارق وحدى فى المكتب، وأغلق الباب بالمفتاح، أخذت أجرى فى المكتب كالمجنون.. لا تليفون ولا أى

وسيلة اتصال بأحد.. وعرفت الآن لماذا أصر الملعون أن أترك الموبايل فى العربية..

بعد أربع ساعات كان طارق يفتح الباب.. وخلفه عدد لابأس به من أصدقاء الدراسة.. كلهم كانوا معى فى تالتة أول.. جاءوا ليحتفلوا بى.. بعد أن أودعنى الزميل طارق أسيرا فى مكتبه طوال هذه الساعات.. وقبل أن ألعنه وألعنهم وأمسح بكرامتهم البلاط.. أدركت أننى المخطئ.. ليس لأننى طاوعته فى المجىء.. وإنما لأننى كنت فى تالتة تانى.

هو رجل أمريكى اسمه جون جولد، صنع له حذاء فى بورتلاند سنة ١٨٦٠، وكان ثمنه ريالين و٧٥ سنتا، وكان هذا ثمنا باهظا جدا لدرجة أنه كان حديث الناس فى أمريكا.. يعنى معمول من إيه الحذاء ده؟

يرد أحدهم طبقات فوق بعضها من جلود التماسيح والثعابين والنمور والكعب من شجر البلوط الذى لا يبلى أبدا.. ثم يتندر أحدهم قائلا: ده بيمشى لوحده يابا.. مش عاوز رجلين.. وفعلا ظل أخونا جون يلبس الحذاء لمدة ٦٨ سنة، وتغيرت فى أمريكا أكثر من حكومة، وأكثر من رئيس.. ولم يتغير حذاء جون جولد.

وكثيرا ما يحلو لبعضنا أن يوقف الحديث فجأة، ثم يرفع حذاءه فى وجهك دون مناسبة ويقول شايف الجوز ده.. الجزمة اللى فى رجلى دى.. بقالها معايا عشر سنين.. ثم ينظر لها بحب ومعزة خاصة مستحملانى.. دى لو بنى آدم كان اشتكى.. ثم يقول بفتاكة.. حد يصدق إن الجزمة دى كانت بُنى؟ فنقول جميعا.. ياه.. وكأنه أتى بمعجزة من المعجزات

يبتسم وهو يؤكد.. لما لقيتها اجربت م الشمس.. صبغتها أسود.. ثم بعد ذلك.. يلقى بقنبلته الثانية.. حد يصدق إن الجزمة دى أساسًا مش جزمة.. ما تستغربوش.. أنا أقوللكو.. الجزمة دى أساسا بَنْص.. وأنا قلبتها برباط.. والنعل ده مش بتاعها.. هيه أساسا نعل كريب.. وركبت لها فى العشر سنين ١٢ نعلا جديدا..

وهكذا ظل يحكى عن حذائه.. وكلنا ننظر إلى الأرض كأننا واقع منا حاجة وبندور عليها..

ولم أتمالك نفسى ومددت يدى أتحسسها كأنها أثر من الآثار.. البوذية القديمة.. التى لا يمكن لصاحبها أن يحرقها أو يتخلص منها.. ولكننى سألته..بس دى باين عليها جديدة خالص.. قال مبتسما ما أنا ماكملتلكش.. كنت باصلى الجمعة.. وحاططها ع الباب.. خرجت مالقيتهاش قلت له.. مش معقول.. قال والله زى ما بقولك كده.. طبعا اتجننت.. أدور يمين وشمال.. فص ملح وداب.. أتصرف إزاى.. لبست واحدة غيرها.. أهيه اللى قدامكوا دى اللى أنا لابسها.. إيه رأيكو فيها؟

وقمت ساخطا وأنا ألعنه، لأنه أضاع الجلسة كلها فى قصة جزمة غير موجودة من أساسه، وأيضا لأنه سرق حذاءً من على باب الجامع لرجل مسكين ليس له ذنب.. فهل يحق لك أن تسرق إذا سرقك الآخرون..

وقد حدث لى ذلك.. ذات جمعة.. واضطررت أن أعود إلى البيت حافيا، وكان الناس يتأملوننى باستغراب.. فهذا البليزر الكُحلى الأنيق مع الكرافتة النبيتى التحفة لا يمكن أن يمشى صاحبها.. بالقبقاب.. الذى استلفته من خادم الجامع.. وقفت على الناصية لأشير إلى تاكسى.. كان كل السائقين ينظرون نحوى وبمجرد ما أن يروا القبقاب يتركوننى وينطلقون..

وكان يجب أن أحكى الحكاية لكل واحد.. للمنادى وسائق التاكسى حتى البواب.. إن رجلا أنيقا يمشى بالقبقاب.. يتشكك الآخرون على الفور فى قواه العقلية..

وفى الجمعة التى تلتها حدث شىء غريب.. لقد وجدت حذائى على باب الجامع.. هو نفسه أنا أعرفه جيدا.. كان راقدا بين الأحذية ينظر لى وأنا أتعجب.. وانتظرت بعد الصلاة حتى أقبض على السارق الذى حتما سيأتى ليأخذه.. ولكن.. انصرف المصلون ولم يأت أحد.. يبدو أن المال الحلال ما بيروحش.. وعدت هذه المرة بحذائين.. أرزاق!!!

قالت فى أنوثة ممتلئة بالحماس.. مشكلتنا أننا لا نستطيع أن نعبر عن تلك الأشياء الصغيرة، التى تجذبنا نحن النساء إلى الرجل.. بينما أنتم أيها الرجال تقولون ما تشاءون بلا أدنى رقابة أو حذف..

شايف البودى اللى هيه لابساه.. يجنن عليها.. ياعينى ع العقد اللى فى رقبتها حكاية..

ونحن النساء يعنى لا نفعل شيئا سوى أن تحمر خدودنا.. وننظر إلى الأرض فى خجل.. محاولين أن نبدو كما لو أننا نتجاهل تلك المعاكسات التى تسعدنا بلا شك..

قلت لها هذا حقيقى ولكن ياعزيزتى.. الرجل معنى.. قد تعجبى بعقله.. بتصرفاته.. بطريقته فى الحديث أما هذه الأشياء الخارجية.. هندامه.. شكله.. أتصور يعنى أنها..

تقاطعنى، وهى تضحك فى خبث، وقالت.. من قال لك هذا.. إن المرأة يلفت نظرها أشياء كثيرة فى الرجل ولكنها تخجل أن تعبر عنها.. قلت لها.. مثلا؟ قالت مثلا يا سيدى.. الجزمة.. قلت لها وأنا أنظر إلى حذائى.. مالها؟ قالت إننى أول مايشدنى إلى الرجل الحذاء.. فهذه القدم الكبيرة حينما ترتدى حذاء جلديا لامعا أنيقا يتلألأ سواده فى فخامة.. هذه الجزمة هى التى تحدد هل سأرفع رأسى إلى فوق أم لا.. فإذا كان فوقها.. بنطلون أشيك على جاكت محترم بقميص مفتوح.. أستطيع أن أؤكد لك أن تسعين فى المائة من المشوار قد انقطع..

قلت لها فى غيظ.. طيب افرضى وصلتى إلى رأسه فوجدته

فارغا.. هل يغفر له حذاؤه اللامع الأجلسيه دماغه الأجلسيه أيضا..

قالت إن الذى فكر فى أن يرتدى هذه الأشياء الجذابة جدير بالانتباه.. ثم أضافت طبعا إنت تقول لنفسك الآن.. إننى تافهة ودماغى فاضية.. ولكن ترى ماذا نقول نحن عليكم أيها الرجال حينما نجد أحدكم مهطولا ينظر فى بلاهة إلى جونلة أو بنطلون محزق.. قلت لها.. مادمت ترين ياأستاذة أن الراجل بالنسبة لك.. جزمة فأنا أتمنى أن تجدى حذاء الأحلام الذى تتمنينه..

ومرت شهور وتزوجت صاحبتنا.. والتقيت بهما صدفة فى مكان ما.. وقالت لى بسعادة أعرفك لطفى.. جوزى.. وسلمت عليه وأنا أنظر إلى الأرض طبعا.. وقلت لها.. مبروك على الأرض.. كان حذاءه إحقاقا للحق.. مراية.. وضع قدما على قدم.. فصار حذاؤه تقريبا فى حجرى.. تحفة فنية.. فأخفيت حذائى المترب تحت الكرسى خجلا..

وأبديت إعجابى فى مجاملة يستحقها وحتى تطرب زوجته أيضا.. قلت له.. الله.. إيه الشياكة دى يا عم.. قالت هى بسرعة.. دى مش من هنا طبعا.. دى من إيطاليا.. بألفين جنيه.. قلت له.. ودى ماشية أد إيه..

وظل الحوار بيننا هكذا.. كله تحت.. فى الأرض ع الجزمة، وانتهت الجلسة السخيفة.. وقبل أن ينصرفا، حرص صاحبنا أن يخرج سفنجة من حقيبته.. ويمسح الحذاء اللامع وقالت زوجته.. ما يطيقش التراب.. ما يمشيش كده إلا لما يبرق..

بعد فترة قصيرة كلمتنى عاشقة الأحذية الرجالى.. وهى منهارة.. فقد اختفى أبو لمعة فجأة، بعد أن أخذ قرضا من أحد البنوك.. بعضهم يقول إنه فى أمريكا، وناس تقول فى كندا.. وكان قد اقترض منها مبلغا كبيرا من المال قبل فراره من البلاد.. وحينما احتدم النقاش بينهما ذات يوم، كرامته نقحت عليه وقال لها غاضبا.. فلوسك ح اديهالك ع الجزمة.. وهرب.. وأخذ معه كل شىء حتى الجزمة

سأعترف لكم بسر.. ولكن أرجوكم أن يظل فى الكتمان.. فالسر إذا خرج عن ثلاثة مليون واحد لا يصبح سرا.. وعليه.. سأهمس لكم بسرى.. ثم تضعونه فى بئر ليس له قرار..

لا يخفى عليكم يا أعزائى.. إننى كنت من المتفوقين فى كل مراحل الدراسة، وحينما حصلت على ٩٤٪ فى الشهادة الابتدائية، بكيت بكاء مرًا على الـ ٦٪ التى ضاعت منى.. وبعدها انطلقت كالصاروخ واستمرت بكائياتى على مجاميعى.. أو ما أخسره من درجات، ولكنها كانت دائما أقل بكثير من ٦٪ إلى أن وصلت إلى الثانوية العامة، وكان دخولى كلية الطب أمرا لاشك فيه..

والمسألة لم تكن أكثر من مسألة وقت ولكن يأتى النجاح بما لا تشتهى السفن فقد بلغت خسارتى فى الثانوية العامة ١٥٪ مرة واحدة؛ مما جعل الطب بعيدا عن شاربى الذى لم يكن قد نما بعد..

واذكر يومها أخى محمد حينما وضع يده على صدرى، كأنه يلقى على خبرا مأساويا مهولا..

وسقطت على المقعد من ردع الصدمة، وأنا أتصور حالة المحيطين بى.. والذين اعتادوا أن يقولوا لى يا دكتور من وأنا فى الإعدادية.. بل إن أبى يرحمه الله كان يتركنى اكشف عليه أحيانا، وأكتب له روشتة من وأنا فى ثانية ثانوى، وكان إيمانه بعبقريتى الطبية ليس له حدود؛ لأنه شاهدنى يوما وأنا أشرح ضفدعة.

أما لماذا كان هذا الانهيار العلمى المفاجئ الذى حدث لى.. فالسبب هو تلك الرومانسية اللعينة التى أكرهها من كل قلبى.. فقد كنت فى الثانوية العامة ولد خنفس.. شعرى منسدل على ظهرى وبنطلونى شارلستون ٤٠ سم على الأقل.. ولم أكن حالة خاصة.. تلك كانت موضة السبعينيات، وكنا نسمع تينا تشارلز المغنية الأمريكية وفريق الآبا والبى جيز..

وأحببت فى مراهقتى هذه واحدة.. كانت أكبر منى سنا.. وكانت جارة لنا.. كنت ألف شعرى بشراب فيليه واعمله (طاقية) حتى يصبح سايح على خلقتى.. ولأننا فى هذه السن الحقيرة نحب المستحيلات.. فكان هذا الحب الذى ليس له أمل ممتعا بالنسبة لمراهق مثلى.

وفى تصورى أنها كانت تعرف أننى أحبها، فساهمت بحاستها الأنثوية فى تضييع مستقبلى.. والواقع أننى لم أجرؤ أن أفاتحها فى

الموضوع؛ لأنها كانت مخطوبة لواحد كنت أكرهه كراهيتى للرومانسية الآن..

وذات يوم ممطر توافرت لى فرصة ذهبية وهى أن أمسك يدها لأعبر بها الشارع، وكانت أدفأ لحظة فى حياتى، على الرغم من البرودة الشديدة..

ولم أكن أتساءل وقتها لماذا تتركنى أعبر بها الطريق، على الرغم من أنها أكبر منى.. ربما لأننى كنت على ثقة من أن أى فتاة لاتستطيع أن تعبر الطريق لوحدها، وأخيرا فسخت خطبتها على غريمى، ولم أهنأ قليلا بذلك؛ حيث إنها تزوجت بعد أشهر قليلة من ثرى عربى يكبرها بثلاثين عاما..

كانت تلك موضة أيضا هذه الأيام مثل الشارلستون وفجأة ركبت سيارة فارهة.. واتسعت عيناها ببجاحة.. ومن يومها تصورت أن الزواج يوسع العيون.. فكلما نظرت إلى امرأة واسعة العينين أدركت أننى جئت متأخرا.. ولم يكن فى مقدور عاشق متفوق مثلى.. أن يجمع بين الرومانسية والتفوق. فى تلك السنة الحاسمة المصيرية فى حياة الإنسان.. وهكذا.. لم أصبح طبيبا.. بقدر ما أصبحت مريضا.. ولذا أنا أكره الأطباء كراهيتى نفسها للرومانسية، وكلما ذهبت إلى طبيب شعرت أنه زميل سبقنى، إلي مالم أستطيع أن أحققه ويذكرنى بفشلى فى الثانوية العامة.. ولذا فأنا أفضل دائما أن

أعالج نفسى بنفسى، فإذا لطشتنى نوبة برد.. أحدد الأعراض وأكتب الدواء.. والحمد لله إلى الآن.. أهوه.. لازلت على قيد الحياة.

ويحكى أن أحدهم كان محروم طب مثلى.. ولكنه كان يدعى أنه طبيب.. ويشخص الحالة ويفتى، إلى أن ذهب إلى المصيف، وتعرف إلى طبيب الشاطئ.. وصارا أصدقاء يرطنان طوال اليوم فى مسائل طبية عسيرة..

وذات مرة ترك الطبيب العيادة لأمر خاص، وجاءت سيدة فى حالة غرق.. وتولى صاحبنا الأمر على الفور.. تحسس وجهها وبطنها بيد خبيرة، ثم سأل أقرباءها.. الست ده غرقت قبل كده.. فأجابوه فى غيظ لأ.. أول مرة تغرق، وعاد يسألهم ما كانتش بتشتكى من حاجة قبل ما تغرق؟ ثم ظل يضربها على وجهها، ولما لم تفق بالطبع.. كتب روشتة شخبط فيها بحروف إنجليزية غير مفهومة كما يفعل سائر الأطباء، وقال لهم.. هاتوا الدوا ده حالا.. ونيموها على بطنها..

ولم يكن أمامهم سوى أن يذهبوا إلى الصيدلية لإحضار الدواء.. هنا حاول صاحبنا أن يمشى أو يهرب؛ لأن أمره انكشف بالطبع، ولكنهم عادوا بسرعة ومعهم دواء لونه أحمر.. أعطوه لها.. فأفاقت وشكرته..

ولكننى شعرت أنه هو الذى لم يفق بعد.. قلت له مالك.. أجاب لا شىء أنا لم.أكتب فى الروشتة سوى شخبطة.. يجب أن أذهب حالا إلى الصيدلية ودخل الصيدلية. وبمجرد ما أن رأى الصيدلى سأله إنت الِّلى صرفت الروشتة دى فارتجف الصيدلى، واعترف أنه ليس صيدلانيا هو الآخر.. وإنما غاوى مثل صاحبنا، وأنه حينما يعجز عن قراءة روشتة يضع شربات فى زجاجة ويخففه بالماء.

وليس العيب فى تشخيص الحالة دائما يقع على كاهل الطبيب.. فبعض الناس لا يحددون أى شىء.. وكمال صاحبى إذا قلت له تأكل إيه.. يرد.. فراخ أو لحمة أو سمك أو فول.. وإذا سألته أقابلك امتى.. يقول بكرة أو النهاردة أو يوم السبت... وهكذا إلى أن مرض وذهب إلى الطبيب.. وقال له مم تشكو.. فأجاب كمال.. لا أستطيع أن أصف ما بى يا دكتور.. نار.. ألم فظيع.. مش عارف منين بالضبط.. مش قادر أقولك ساعات يسَمَّع هنا.. وساعات يسمع فى رجلى.. مش عارف.. ده صداع ولا مغص.. ولاالتهاب.. ممكن يكون كاللو؟!

هنا رد عليه الطبيب قائلا.. خذ دواء من الصيدلى.. مش عارف حبوب ولا شرب ولا لبوس.. مش عارف كام معلقة ولا كام

مرة.. وإن شاء الله ح تبقى كويس أو ما تبقاش.. وعدى على بعد أسبوع أو شهر أو ما تعديش خالص.

وأول من يشخص المرض فى الواقع.. هو العيان.. وليس الطبيب.. ولذا كثير منا يتوهم المرض.. ويصر عليه..

ويقال إن إحدى السيدات كانت تتوهم أنها مريضة بالكبد.. وكلما عرضت نفسها على طبيب، وأكد لها أنها واهمة خرجت من عنده ناقمة حانقة عليه.. فهى لا تصدق التحاليل ولا تصدق الأشعة.. ولا تثق بالأطباء.. هى متأكدة أن الكبد تعبان..

وأخيرا ذهبت إلى أحد الأطباء.. وكان قد عرف حكايتها فقال لها بعد أن فحصها.. أنت يا سيدتى مصابة بحالة نفسية فى الكبد.

والأطباء ملائكة الرحمة.. نحن لا نراهم إلا ونحن مرضى وكثيرو الشكوى.. فإذا انتهت الآلام لا نتذكرهم بعد ذلك.. ولاأجمل من تلك الملاحظة الشاعرية الرقيقة لشاعر النيل حافظ إبراهيم؛ حيث كان يتردد على أحد الأطباء، ثم احتجب عنه فترة من الزمن.. وحدث أن قابله الطبيب مصادفة وسأله.. وإزاى صحتك دلوقتى.. فأجاب حافظ إبراهيم زى البمب يا دكتور، ثم أردف قائلا لا مؤاخذة يا دكتور صحتى كويسة غصب عنى والله أنا آسف.

وفى شكاوانا للأطباء غالبا ما نخرج عن الموضوع.. وليس على ألسنتنا سوى مش عارف أنام يا دكتور.. مش عارف أنام.. وحدث أن نصح أحد الأطباء مريضا بالبرد بأن ينام والنوافذ مفتوحة، وعاد له المريض فسأله الطبيب هل نمت كما أشرت عليك والنوافذ مفتوحة.. فأجاب المريض نعم يا دكتور.. فسأله الطبيب والبرد راح.. فرد المريض فى غيظ.. لأ.. فلوسى هى اللى راحت.. حرامى نط شطب على الشقة باللى فيها.

ومريض آخر ذهب إلى الطبيب، وهو يشكو.. مش عارف أنام يادكتور.. وكشف عليه الطبيب كشفا كُليا.. ولما لم يجد أى شىء.. قال له الطبيب.. إذا لم تستطع النوم فذلك يرجع إلى ضميرك ياعزيزى..

وأكثر ما يضايقنى من يفاصل مع الأطباء، ويحكى أن رجلا ريفيا بعين واحدة ذهب إلى الطبيب؛ ليركب له عينا زجاجية وطلب الدكتور مبلغا معينا من المال.. فقال له هاودنى المرة دى عشان يمكن أشاور عقلى وأعمل عينى الثانية..

وأنا أحمد ربنا وأبوس إيدى وش وضهر لأننى لم أصبح طبيبا.. فعلى الأقل تخلصت من كل السخافات السالفة الذكر..

كما أن حياة الطبيب ليست ملكه، فهو ستاند باى علطول..

التليفون يرن فى أى وقت يستدعى فى الحال ولا أبلغ فى تصوير هذه الحالة من قصة تشيخوف الرائعة.. «الضدان».. ذلك الطبيب الذى مات ابنه بين يديه، وهو يحاول بأقصى جهد أن ينقذه.. وزوجته منهارة تماما.. ويطرق الباب فى منتصف الليل، وإذا برجل استقراطى وسيم يتوسل إليه.. الحقنى زوجتى بتموت يحاول الطبيب أن يفهمه الموقف، ولكن الرجل يذكره بشرف المهنة.. وباليمين الذى حلفه.. ويجبره على أن يترك منزله، ويذهب معه إلى فيللته لإنقاذ الزوجة التى تحتضر.. ويدخلان الفيللا، ولكن يصرخ الزوج.. آه.. لا لم تمت الزوجة، وإنما.. هربت مع عشيقها.. كانت خطة بارعة منها لإبعاده عن البيت..

هنا يجن جنون الطبيب، وهو يكتشف حقارة ووضاعة تلك الطبقة والزوج لا يقول له سوى تستطيع أن تأخذ أتعابك هذا كل شىء

هذا حدث فى روسيا، أما فى أمريكا.. فقد تعرف أحد الطلبة سيدة أمريكية وبدأ يغازلها ودعاها لتناول العشاء معه، ولكنها اعتذرت فسألها لماذا؟ قالت هذه أوامر الدكتور، فسألها الشاب مندهشا سلامتك هل أنت مريضة.. فأجابت كلا.. ولكن الدكتور هو زوجى.

تؤكد إعلانات (السمنة) الكثيرة والمتنوعة فى التليفزيون أن السمنة صارت ركنا أساسيا فى البيت المصرى.. لا غنى عنه، وأن دورها فى حياتنا لا يقتصر على جعل الطعام أشهى وألذ.. بل إنها تتعدي ذلك إلى دور اجتماعى مهم، فهى التى تعيد الأزواج إلى الزوجات وهى التى تلم شمل الأصدقاء..

وليس أروع من تلك المظاهرة العاطفية الرائعة للشعب، وهو يهلل فرحا، حينما صارت العلبة اثنين كيلو وربع بثمانية وربع، والكل فى عناق حار وسرور عظيم وكأننا فى عيد رأس السمنة.. وإذا كان الدكتور طه حسين قد قال إن العلم كالماء والهواء.. يجب أن يتوفر لكل إنسان.. فليسمح لى استأذنا أن أضيف إلى مقولته الرائعة السمن كالماء والهواء.

ولأن العلم والتكنولوجيا والحضارة تحاول أن توفر للإنسان حاجاته الأساسية.. فلابد أن جهة ما تدرس الآن كيف توفر السمنة لكل مواطن..

ولنعد قليلا للوراء حينما كان الماء عزيزا.. وكان السقا هو الذى يوزع الماء على البيوت لنرى كيف اختفى

هذا السقا من الحياة.. وتحول إلى مواسير.. فى البيوت توفر الماء بمجرد ضغطة على الحنفية، فى مقابل فاتورة أنيقة تأتى كل أول شهر..

ولنتذكر معا أيضا أيام الكانون والوابور، ثم اختراع البوتاجاز وعامل الأنابيب الذى يصدع رؤوسنا بطرقه على الأنابيب بالمفتاح.. وللأنبوبة سعران.. سعر قدام البيت.. وسعر ثان حتى يحملها إلى الشقة.. هذا أيضا اختفى، وتحول بدوره إلى مواسير الغاز حيث يتوافر الغاز هو الآخر.. بضغطة بسيطة على مفتاح.. وفى آخر الشهر تأتى الفاتورة الأنيقة.

وأمام هذا الإقبال الجماهيرى المهول على السمنة.. وطوابير السمنة التى نراها فى الإعلانات، لابد وأنهم يعدون العدة.. لعمل مواسير السمنة.. وهى لمن لم يركبها بعد.. مواسير فى المطبخ.. تنتهى إلى خزان فوق العمارة، ملئ بالسمنة وموتور يوصل السمنة للأدوار العليا..

وهناك بجوار عداد الغاز وعداد المياه وعداد الكهرباء.. عداد آخر هو عداد السمنة وهكذا تصبح الحياة فى غاية السهولة والروعة.. تضع الطبق الفارغ تحت حنفية الفول.. وتأخذ القدر المطلوب.. ثم

تحركه ببساطة تحت حنفية السمنة.. صار عندك طبق فول بالسمنة فى ثانية واحدة..

وتنادى الزوجة على زوجها.. يلَّلا يا أبو الوفا الفطار جاهز.. يصرخ أبو الوفا من داخل الحمام وهو يأخذ حمام الصباح.. حاضر حاضر بس اقفلى محبس السمنة أحسن غرقتنى..

يطرق الباب، ويفتح أبو الوفا ليجد كشاف عداد السمنة يقدم له الفاتورة.. يأخذها فى غضب.. ويعاتب زوجته المبذرة: ساحبين سمنة بسبعين جنيه الشهر ده ليه؟ هوه افترا.. أنا مش ح ادفع ويبقوا يقطعوا السمنة..

يغيظها عتابه لها، وتواجهه: قول لنفسك إنت لوحدك كل يوم بتشرب كباية سمنة على الريق.. وبعد الفطار بتجبس بكباية سمنة.. وفى الغدا ما تتكيفش إلا لما تآكل سمنة بالخضار أو سمنة باللحمة، والعيال بياخذوا ساندوتشات السمنة معاهم المدرسة.. أعمل لِكِوا إيه.. أمال لو بتشترى من السوق سمنة معدنية كنت عملت إيه..

ينظر الأب فى ضيق إلى أفياله الثلاثة.. فلذات كبده الذين تربوا على السمنة، وهم يتحركون بالسلوموشن ثم ينهال عليهم ضربا،

ولكن كلما هوى ذراعه على أحدهم يتزحلق.. لقد صار الأولاد كائنات سمنية مترهلة..

ودخل حجرته غاضبا وأقفل الباب.. ولكن الباب كان معصلجا، فسمع زوجته تقول له من الداخل.. الباب عاوز يتزيت.. جلس فى غيظ، وفتح التليفزيون وكاد يجن جنونه.. وجدها أمامه على الشاشة علبة سمنة تقول.. أنا اسمى سمنة وعندى اثنين كيلو وربع.. ح تساعدنى.

تعودنا فى مشاهدتنا للأفلام السينمائية أن يكون الصراع بين الخير والشر، وأن الخير لابد وأن ينتصر فى النهاية.. ولذا يقسم المخرج أبطاله إلى صنفين.. صنف كويس قوى وطيب جدا وكامل من كله.. وصنف تانى ربنا ما يوريك..

ومن بداية الفيلم يغششك المخرج.. أهوه.. حسين صدقى بيختم الصلاة على السجادة.. يبقى إيه؟ كويس.. فريد شوقى بيشرب فى الكباريه ورافع حاجبه الشمال لفوق يبقى إيه؟ وِحِش..

نركز مع بعض شوية يا جماعة.. فاتن بريئة ولا مش بريئة؟ نرد فى حوارنا الداخلى بريئة طبعا.. خد بالك بأه.. آدى زوزو ماضى أهيه قاعدة على ترابيزة القمار تبقى إيه؟ وحشة.. خلاص.. نعمل حسابنا من الأول كده! إنها ح تضايقها شوية وح تطلع عينها، إنما ما حدش يقلق.. شوف القفلة زوزو ماضى أهيه داخلة السجن، وفاتن أهيه بتبدأ حياتها مع محسن سرحان اللى هوه طيب برضه..

وهكذا لا يرتاح المشاهد إلا بعد أن ينال الشرير عقابه..

أذكر أن أمى كانت تشاهد أحد الأفلام للمرة العشرين بعد الألف، وحافظة الفيلم صم وحينما كانوا يحاصرون المليجى للقبض عليه فى نهاية الفيلم، حاولت أن أحول القناة لأرى ما يعرض على القناة الثانية فصرخت فيّا قائلة.. استنى لما يقبضوا عليه..

وفى فيلم ـ من القلب للقلب ـ كانت ليلى مراد تعمل فى كباريه وتجالس الزبائن للنصب عليهم.. فسألت أمى لماذا تمثل ليلى مراد مثل هذا الدور.. فأجابت بثقة هى شغالة فى كباريه بس مؤدبة قلت لها ولكنها بتشرب خمرة.. أجابت بثقة أكبر دى مش خمرة أكيد حاطين لها كازوزة فى القزازة..

وحينما عمل فريد شوقى نقطة التحول فى حياته من أدوار الشر إلى الأدوار المليودرامية الطيبة، كانت أمى مقتنعة تماما أن فريد شوقى كان شريرا بالفعل فى شبابه، ولكن الحمد لله ربنا هداه وبأه كويس.

وظل المجتمع محافظا على هذه التقاليد النبيلة معترفا بأهمية انتصار الخير فى مواجهة الشر. لدرجة أن تحية كاريوكا فى أحد الأفلام تخبط على صدرها، وتقول فى استنكار لامرأة تحاول أن

تدفعها إلى طريق الانحراف.. رقاصة؟!! أنا أشتغل رقاصة يا نهار اسود!!

والمفارقة هنا رائعة.. لأن تحية بتشتغل رقاصة بالفعل فى الحياة.. ولكنها لا تستطيع أن تفتخر بذلك فى فيلم سينمائى.. لأنها تعلم أنها ليست قدوة للبنات اللاتى يشاهدن الفيلم.. أما الآن فالراقصة تتكلم عن الرقص كعمل عظيم عبقرى، يجب على الدولة أن تدعمه.

وعليه.. صار الطيبون فى الأفلام مصدرا للسخرية بينما صارت البجاحة والوقاحة هما موديل العصر الجديد.. الولد إذا كان خجولا.. مهذبا تقلق أمه عليه، وتتساءل مش عارفه الواد طالع هادى كده عامل زى البنت.. والبنت الخجولة الرقيقة.. صارت خايبة .. أما الأخرى (الروشة النغشة) أصبحت بنت شاطرة وعارفة بتعمل إيه وتفوت فى الحديد..

وأصبح الأشرار هم نجوم هذه الأيام، وبالتالى لم يعد للطيبين دور سواء فى الحياة أو فى السينما وعموما كفاية عليهم الأفلام الكثيرة، التى انتصروا فيها على الشر، ولذا سيكون الصراع القادم بين الشر والشر..

خد عندك حتة فيلم اتصور فيه البطلة، وهى فتاة ليل تتصارع مع

فتاة أخرى.. وهى فتاة ليل برضه.. على حب رجل.. الرجل أساسا قواد معنديش حد عدل فى الفيلم ده.. وهو يحب فتاة أخرى لا تعمل فى الكباريه، ولكنها تدير شقة للعب القمار، وهى على علاقة برجل شاذ ومدمن للهيروين..

وينتهى الفيلم بأن يقتل الرجل القواد كـل الممثلـين فـى الفيلم، ولا يقبض عليه بالطبع لينتصر الشر فى النهاية..

أتوقع نجاحا ساحقا لهذا الفيلم ولذا أنا أجهز من الآن بارت تو الجزء الثانى منه.. يرتبط القواد بامرأة ثرية مدمنة للكحوليات، وتنجب له طفلا شريرا، والطفل أساسا مش منه هوه.. وإنما من أعز أصدقائه الذى يلتقى القواد هو الآخر بزوجته سرا..

وينتهى الفيلم بأن يلقى الطفل الشرير بقنبلة ويولع فى البيت كله بمن فيه، وتقترب منه الكاميرا زووم لنجد نظرة مرعبة فى عينيه، وهو يتوعد المشاهدين بجزء ثالث على الأقل.. يأخذون ذيولهم فى أسنانهم ،ويفرون من السينما.

انتهى الصراع التقليدى بين الخير والشر.. أتصور سيناريو فاشلاً لفيلم من أفلام الطيبين. ولد طيب جدا فى الجامعة حَبْ بنت طيبة أوى، زميلته فى الكلية.. البنت غنية والولد فقير، راح يطلبها من أهلها.. راحوا أهلها إيه؟! موافقين طبعا.. ما العيلة كمان طيبة..

الولد والبنت نجحوا.. واتجوزوا وخلفوا ولدًا، طيبًا جدا وبنت طيبة جدا.. ابنهم طلع من الأوائل.. وما يعرفش يعنى إيه بانجو وعمره ما شاف مجلة سكس، والبنت يا خرابى عليها براءة وطيبة وأدب.. لا صاعت ولا شمت ولا اتجوزت عرفى.

ومشهد النهاية فى الفيلم لا يختلف كثيرا عن مشهد البداية.. العيلة الطيبة كلها مجتمعة.. وهم ينظرون للجمهور نظرات كلها حب.. وصدق وخير وسعادة.. وكفاية بأه أحسن الدموع ح تفر من عينى.. وتلفت حولى فلم أجد أحدا يشاهد الفيلم غيرى فى الصالة.. كلهم ذهبوا إلى الفيلم الآخر حيث ينتصر الشر فى النهاية.

هناك عقدة مصرية أصيلة بلاشك تجاه الأحزمة، بدأت منذ اختراع الطيران؛ فإيمان المصرى بالقضاء والقدر جعله لم يتصور أن ربط الحزام السايب هذا سيمنع شرًا أو سيقدم خيرا.. بل إنه يعتقد أن هذا الحزام سيعطل فرصة نجاته، إذا حدثت كارثة لا قدر الله، والطيارة حصل لها حاجة فهو سيثبت فى مكانه، وما يقدرش يطلع يجرى.

ولكن أمام هذا الأمر الواضح.. اربطوا الأحزمة.. لا يملك إلا أن ينفذ حتى لا يصبح نشازًا مع إيمانه المطلق أن مسألة ربط الأحزمة هذه ما هى إلا مؤامرة على حياته تماما، مثلما يقول الطبيب للمريض قول آه.. فالمريض يرد بضيق لعدم اقتناعه بأن آه التى سيقولها هذه هى التى ستحدد المرض والعلاج.. ولكنه بزهق يقولها وخلاص..

وذكرى أخرى سيئة تعود لأيام الصبا خاصة بالحزام، حينما كان يعاقب المدرسون التلامذه بالعصا والجلدة.. وكان أقواها وأرفعها مستوى هو الضرب بالحزام.. فعلاوة على أن به لسوعة.. وبه ذلك الألم الخاطف

اللى يوجع ومايعلمش.. فأنت فى كل ضربة لا تخشى الحزام بقدر ما تخشى التوكة.. لا تعلم ح تنزل على دماغك أو على رقبتك أم على ودانك.. وحالة انتظار وقع التوكة هذه من أشد حالات الألم التى مررنا بها فى حياتنا.

أما أسوأ ذكريات الحزام التى نتذكرها، ونحن نتصفح ألبوم الحزام فى حياتنا.. فهو ذلك الشعار الحكومى الذى انتشر فى الستينيات من القرن الماضى.. اربطوا الحزام.. وهى دعوة لهذا الشعب الغلبان الجعان، إن لم يلم نفسه فيما يختص بالأكل والشرب والمصاريف.. وربطنا الأحزمة ومنعنا التدخين، ومنعنا الكلام والهمس والتعبير والنفس، وصارت عقدة نفسية اسمها الحزام كومبلكس.

وفى العصور الوسطى، حينما شاع الانحلال والفجور، وصار الرجل لا يثق بامرأته إذا سافر بعيدا عنها، على الرغم من أن ما كانت ترتديه من ملابس كثيرة هى موضة ذلك العصر، كان وحده كافيا للحفاظ على عفتها.. فكانت المرأة ترتدى ست سبع فساتين فوق بعض على صديرى وكلسون.. يعنى عشان تخلع ملابسها، وقدامها نص يوم على الأقل تراجع فيه نفسها..

ومع ذلك فقد اخترع رجال لهذا العصر حزام العفة الحديدى.. وهو رمز لعدم الثقة والشك القاتل والاتهام بالخيانة.. ولم يستطع

حزام العفة أن يؤدى دوره على أكمل وجه.. حيث اخترعت فى الفترة نفسها.. الطفاشة.

وفى العصور الحديثة فى بيت مشبوه طلعت البنت المثيرة فوق الترابيزة، وقالت للموجودين إيه مفيش حد يحزمنى؟! وكبس البوليس على البيت وقال الضابط لرئيسه فى اللاسلكى.. حزمنا المنطقة يا فندم.

كل هذه الأحزمة دارت برأسى، وأنا أربط الحزام فى سيارتى فى ضيق حتى لا أدفع الغرامة وسألت نفسى.. متضايق ليه؟ هيه يعنى الحكومة عاوزاك تربط الحزام ليه؟ مش عشان تحافظ على حياتك.. إحنا كده.. نموت فى الفوضى..

وقلت لنفسى.. المسألة إذًا ليست فى الحزام.. المسألة فى الرصيد التاريخى لهذا الحزام.. إن جملة اربط الحزام جملة كئيبة، حتى لو كانت حسنة النية، وكان أولى بهم أن يخترعوا لنا جملة جديدة كانت ستسعدنا بحق.. وسننفذها ونحن راضون.. جملة ليس لها سمعة سيئة مثل اربطوا الحزام هذه.. ولتكن مثلا.. شدوا الحمالة.. والله حلوة.. وقعها على الأذن أحلى بكثير، ولا أجد داعيا للتهديد بالغرامة وسحب الرخصة والبهدلة.. يكفى مثلا.. أن نقول اللى مش ح يشد الحمالة ح نزعل منه كلنا ،وإذا لقيناه فى لجنة مش ح نكلمه.

بابتسامة ملائكية ونظرة طفولية وبدلة سماوى وقميص لبنى فاتح، يتخاطر باراك أمام الكاميرات.. ثم بوداعة ولطف يحسد عليهما يعلن الحرب.. بوسامته التى لا تقاوم.. وشعره الرمادى الأنيق.. بقوامه الفارع الذى يشبه فرسان الأحلام.. يعلن كلينتون إنه راعى السلام، ويبتسم هو الآخر ابتسامة مؤثرة مليئة بالحب والصدق والحنان.. ابتسامة مجربة بلاشك.. أوقعت قبل ذلك عشرات الموزز، وتحولت بدورها إلى الشعوب.

وشارون السفاح هو أيضا يبتسم.. ولكنها ابتسامة واثقة من نفسها دافئة.. ابتسامة أب يدلل أبناءه الصيع.. ابتسامة حشاش عامل دماغ ويشعر بتلك النشوة، التى لم أعرفها فى حياتى، ولكنهم قالوا لى عنها.

ونتنياهو.. يا عينى يالروعة ابتسامته هو الآخر.. إنها ابتسامة على مراحل.. ابتسامة صهيونية تبدأ بلمعان فى عينيه.. ثم احمرار فى خديه.. ثم شفتاه تنفرجان فى النهاية، كأنها الفصل الأخير من رواية

قديمة.. ابتسامة بها غموض وسحر.. ابتسامة طفل عابث يكسر اللعب ويفتح أنبوبة البوتاجاز ويجرى.

ومادلين أولبرايت ما أجمل أن تتأمل ابتسامتها.. إنها ابتسامة امرأة عانس، تلفظ أنفاسها الأخيرة ولايزال الأمل يراودها.. ابتسامة من تذكرت فجأة أنها امرأة، وأتصور لو كان عرفات فى عز شبابه وصحته لتغيرت مجريات الأمور فى القضية الفلسطينية تماما.

أما الأخ اللطيف شالوم بن عامى.. فهو عبارة عن ابتسامة متنقلة بسبب وبلا سبب، هو كده رايق علطول وفشته عايمة.. ولذا فالأصح أن نقول أن شالوم بن عايمه إذًا.. الكل مبتسم.. الكل سعيد.. متفائل مقبل على الحياة.. فيه إيه بأه؟ البوز اللى احنا ضاربينه ده لازمته إيه؟ يبقى إحنا شعوب نكدية فى الأصل، وغاويين مآسى ودراما.

وإذا كان برجسون قد عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك، واعتبر أن الابتسام هو صفة إنسانية، يتفرد بها البنى آدم وحده دون غيره من سائر الكائنات.. إذا كان برجسون قد أكد هذا.. يبقى إحنا مش بنى آدمين..

ولكن خالتى إنصاف، وهى لا تقل عن برجسون بأى حال من الأحوال، قالت إن الضحك من غير سبب قلة أدب.. ولكن

ياخالتى إنهم يبتسمون.. ملوك الشر يبتسمون عمال على بطال.. وهنا يبرز السؤال المهم لماذا يبتسمون وكيف يستطيعون ذلك؟

أذكر أن الأستاذ العقاد قال فى مقالة عن الضحك والسياسة.. إن الطغاة والسفاحين ومجرمى الحروب قلما تجد لهم صورة وهم يبتسمون، بل مستحيل أن تجد هتلر يضحك.. أو موسولينى يبتسم.. فرائحة الموت تضفى على من يجاورها جهامة وتكشيره دائمة.. فهل يمكن لمشهد قتل طفل صغير، يتوسل لهم وهو فى حضن أبيه ليدعوه يعيش أن يجعلك تبتسم؟ هل يمكن لذلك الرجل المسن الذى تعدى السبعين عاما، وهو يجهش بالبكاء ويجلس فى العراء يبكى حفيده الصبى، الذى ذهب فى الصباح وعاد فى الظهيرة محمولا على أكتاف زملائه جثة هامدة.. هل يمكن لشىء كهذا أن يجعلك تبتسم؟ هل يمكن أن تشعر بالسعادة وتفشخ ضبك وأنت ترى أما فقدت أولادها الخمسة مرة واحدة وأخويها وأباها وعمها فى أقل من أسبوع.. عائلة بأكملها كانت تعيش وتحلم وتأكل وتشرب، وربما كانوا يبتسمون هم أيضا ثم فجأة صمت هائل وخواء مرعب!!

يبدو أن برجسون وخالتى إنصاف أيضا قد ثبت فشل نظرياتهما.. هل تذكرون نظرية الرجل وقشرة الموزة.. إذا كان أنيقا محفلطا متطاوسا، وتزحلق فى قشرة الموزة هنا نضحك أما إذا كان مسكينا

غلبانا يائسا وتزحلق فى القشرة نفسها فنحن نبكى.. نتعاطف معه..

ولكن يبدو أن هذا لم يعد صحيحا فها هو المسكين يتزحلق وتنكسر رقبته، والكل يفطس على روحه من الضحك، ويتساءل الضاحك الأول هأهأ وبعدين حصل له إيه؟ يرد الثانى وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الضحك.. وبعدين إيه؟ وبعدين مات فى داهية ويرفس الأول برجليه فى الأرض، وهو يكاد يقع من فرط الضحك.. لأ.. لأ.. مش ممكن.. آه.. يخرب بيتك.. مات فى داهية.. آه.. هاها.. وبعد ما مات حصل له إيه؟ يرد.. الكلاب بأت قاعدة تقطع فى لحمه نساير.. نساير.. وينفجر الثانى مقهقها آه.. يخرب عقلك قتلتنى من الضوحك.. نساير.. وبعدين، يرد الأول: وبعدين عفن.. يسخسخ الآخر من الضحك.. هأهأ حرام عليك قلبى ح يقف.. مات معفن.. هأهأ.. اللهم اجعله شر.. ده إنت مصيبة.

وإذا كان هؤلاء المبتسمون هم قدرنا، وهم المتحكمون فى مصائرنا يقتلون أطفالنا ويرملون النساء، ويهددون بالحرب والدمار، وعلى شفاههم تلك الابتسامة الوديعة.. فلماذا لا نبتسم نحن أيضا؟ واخدينها جد كده ليه؟ كل التحليلات والمؤتمرات والمفاوضات لم تؤد

إلى شيء.. فقط المزيد من الكآبة والإحباط، والمزيد من الابتسام والروقان فى الجانب الآخر..

الاستثناء الوحيد من هذه الحالة المريرة كان شعبان عبد الرحيم.. صار أعجوبة وحديث الناس كلها حينما غنى ما بحبش باراك وباكره إسرائيل، وسخسخنا من الضحك، ونحن نسمعه نِقْلِش كل الأغانى الرائعة التى أبدعها الفنانون والشعراء عن الانتفاضة.. هذا ليس زمان الشعر ولا زمان الأدب..

هذا زمن قليل الشعر وقليل الأدب وليس أمامنا حل صدقونى سوى أن نبتسم.. هيا يا أعزائى.. هيا افردوها بأه.. ياللا.. مع بعضينا كده.. سهلة خالص.. سيب إيديك نفتح بُقنا.. نشد الشفايف لبره شويه.. نرفع الخد ياللا أهيه جايه.. حتى عشان الصورة قولوا تشييز (يعنى جبنه بالإنجليزى مش مسألة أكل.. هيه الكلمة دى لما تقولها تلاقى نفسك ابتسمت لوحدك ياللا.. قولوا تشيز.. وأى حد يسألك بعد كده بتضحك على إيه؟ قوله كلمة واحدة بس... قول تشييز، ويقول الشاعر:

وإذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تظـنن أن الليـث يبتسمـا

أخيرا سيجتمعون.. سيجلسون معا.. وستبدأ المفاوضات..

الترابيزة الكبرى أعدت وصناديق المياه المعدنية والحاجات الساقعة بأنواعها الثلاثة أسود وأبيض وبرتقالى عشان محدش يبأه نفسه فى حاجة..

وباقة زهور رائعة أمام كل مفاوض عشان تفتح نفسه..

المراسلون من كل أنحاء العالم مرابطون بجوار القاعة التى تجرى فيها المفاوضات.. كل مراسل يحلم بأن يحصل على أية جملة مفيدة حتى ينبرى أمام الكاميرا قبل الباقين، ويقولها ثم ينهى كلامه كالعادة.. فلان الفلانى قناة الأخبار من طابا ولو كان من واشنطن ستكون مناخيره حمرا ومزكم ويرتجف من البرد.. ولو كان من الخليل ستراه يتكلم بسرعة ورجفة.. أحسن أى حاجة تلبس فى دماغه..

المهم.. أن يعرف الناس بأسرع ما يمكن تفاصيل المسرحية التى تمثل داخل القاعة، والمفاوضون قبل دخولهم يبتسمون للكاميرات ويشيرون لنا كنجوم السينما.. فنقول.. خير يارب..

وتنتهى المفاوضات بالفشل طبعا.. ويخرجون يبتسمون برضه ولا كأنهم عملوا حاجة.. حار ونار الميه والبيبسى..

وتاريخ المفاوضات هو صورة متكررة لرواية ثابتة واحد مفترى وظالم وواحد مظلوم وطالع عين أهله..

وحتى يختلف شكل الغابة التى نعيش فيها عن الغابة إياها بتاعة النمور والذئاب والضباع، التى تعتدى بلا رحمة على الغزلان والخراف وغيرها من الحيوانات الضعيفة، وحتى تصبح غابتنا شكلها أحلى شوية.. تجلس الذئاب مع الحملان فى مفاوضات، ويبتسم الذئب فى ثقة أجمل ويقول له.. ح أكلك وآكل عيالك وأشرب من دمهم فيصرخ الحمل.. يا عالم.. ردوا انتوا قولوا حاجة ده ظلم.. فيقول الذئب طيب خلاص.. ماشى ح أقدم شوية تنازلات عشان بس ماتقولش عليا مفترى أن ح سيبك تعيش، بس ح آخد الفخدة دى منك.. الفخدة دى بتاعتى أساسًا.

ويرد الحكم الأمريكى العادل طيب كويس أهوه قدم خطوة تجاه السلام.. ويصرخ الحمل.. حياخد الفخدة إزاى من غير ما يموتنى، فيستاء الحكم الأمريكى ويقول له، وبعدين الراجل حياخد فخدة ويسيبلك فخدة عاوز إيه، وبعدين ما إنت عندك اللية زى ماهية.. محدش لمسها ..ويضغط الجميع على الحمل سيب له الفخدة يا أخى

سيبها له.. ويرفض الحمل الاقتراح، ويترك الاجتماع غاضبا ويجرى وراءه المتفاوضون.. ويعودون به بعد أن توصلوا لنقطة جديدة فقط إقترح الذئب بكرم دافق أن يتنازل عن الفخدة، ولكنه فقط يطلب بيت اللوح..

وأخيرا يكتفى الذئب بعد عشر ساعات من الإلحاح.. وخليها عليك شوية وح نعوضها لك بعدين.. أن يأخذ الفروة ويصرخ الحمل باكيا وكيف ستأخذون الفروة؟.. فيرد عليه الذئب، وهل يضير الشاه سلخها بعد ذبحها؟

وتعود المفاوضات مرة ثانية لنقطة البداية ونغير الميه والحاجة الساقعة لحد الوفد ما يقيل شوية..

وبعد قليل يفاجأ المؤتمر بأن الذئب إياه ترك المفاوضات، مش لأنه مقموص ولا حاجة، وإنما لأن ذئبا آخر هو الذى سيجلس مكانه على الترابيزة.. وبمجرد ما أن يجلس، يهتف مبتسما للجميع هه.. كنا بنقول إيه بأه.. لأ.. انسوا خالص حكاية الفخدة وبيت اللوح والفروه.. ده كلام ذئب أهبل ما يخشش دماغى.. أنا طلباتى واضحة ومش ح اتنازل عنها.. آكله وآكل عياله واشرب من دمهم.. تلك هى المسرحية الأزلية للمفاوضات..

فلاش باك سريع بأه حينما تعثرت المفاوضات بين سعد

وماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا، وكان ماكدولنالد أيامها مجرد رجل سياسى، لم يتحول بعد إلى ذلك الساندوتش الشهير الذى استعمر أطفالنا ،وكان هذا هو نص المسرحية الدائرة بينهما.

ماكدونالد: كم يؤسفنى يا دولة الباشا أن أخبرك أن المفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود.

سعد: وأنا أيضا لمست ذلك.

ماكدونالد: ولذا اقترح أن نترك باب المفاوضات مفتوحا.

سعد: سيان عندى يا مستر ماكدونالد.. فإننا لو أغلقنا باب أى حجرة، لما كانت هناك صعوبة فى إعادة فتحه.

ماكدونالد: ألا ترى معى أنه من دواعى الأسف أننا لم نستطع أن نمر معا من هذا الباب، على الرغم من أنه مازال مفتوحا.

سعد: كان يجب على أحدنا أن ينحف قليلا.. يخس شوية.

ماكدونالد: وليه مانخسش إحنا الاثنين.

سعد: أنا بقيت جلد على عضم.

ولم ينحف ماكدونالد طبعا.. دا فتح مطعم أكل.. وبأه هو لوحده صعب يطلع من الباب.

وظلت المفاوضات هكذا... ترابيزات واجتماعات ومناقشات

وقزايز ميه وتصريحات والشعوب تتفرج.. تصفق أحيانا.. وتعلن سخطها فى أغلب الأحيان، والحكومات تشجب وتستنكر وتدين.

وحتى لا تتصوروا أننى رجل إرهابى دموى، لا أحب السلام وأؤمن بتلك المقولة التى لا تعجب البعض.. ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة.. فأنا قررت أن أكفر بهذه القاعدة واستبدلها بقاعدة أخرى من تأليفى «ما أخذ بالمفاوضات لا يسترد بغير المفاوضات».

وعليه أتوقع أن تنتهى الحروب التقليدية هذه، وتبدأ الحرب الكلامية الثالثة.. أما ما يحدث فى القدس الآن فهو ليس حربا.. دول شوية عيال صغيرين قللاة الأدب.. وبنربيهم عشان يبقوا شاطرين كده، ولما يكبروا ويبأوا بسم الله ما شاء الله.. سيجلسون هم أيضا على ترابيزة المفاوضات.

أول بدلة ارتداها أكبر أخوتى «محمد» وهو داخل الجامعة.. كانت أصلا بدلة أبويا إتأيفت واتروقت.. وبعد كفاحها مع أبى فى الوظيفة دخلت الجامعة..

وانتقلت بعد ذلك بصورة طبيعية إلى أخى عادل، الذى لم يجر عليها تعديلات تُذكر، ثم مرت بأخى صلاح إلى أن وصلت لى.. وهى عدمانة، ولكن أمى بخبرتها الطويلة فى هذا المجال.. استطاعت أن تعمل لى منها شورت وشنطة، أضع فيها كراريس المدرسة..

ويقول لى المتقدمون فى السن فى العائلة الكريمة.. إنها كانت كحلى.. أنا لحقتها رمادى.. ولكنى أذكر المرحلة «اللبنية» التى مرت بها بدلة أبى فى بداية السبعينيات..

وقد تعلمنا جميعا هذا الحرص المبالغ فيه على البدلة.. فكنا أول ما ندخل إلى البيت نقلعها فورا.. ونلبسها لضهر الكرسى.. لتأخذ وضعها

وعليه صارت ملابس أخوتى الكبار تراثا عائليا، نتناقله بسهولة ويسر.

وكانت أمى تنظر لى بحب وأنا طفل صغير، وتهتف داعية.. أعيش يا بنى وأشوفك لابس بنطلون أخوك عادل..

كان أبى يقدم على استمارة لصرف القماش من محلات القطاع العام.. «الكسوة».. فكان توب القماش الكستور المخطط.. يعمل به بيجامات لكل أفراد الأسرة، كنا نرتديها فى وقت واحد، وكنت أنظر لأخوتى فينتابنى شعور بأننا فى أبو زعبل..

وما يتبقى من القماش طبعا لا يلقى به فى سلة القمامة.. وإنما لابد أن يستخدم وينفع بأى صورة من الصور.. فهذه طواقى مخططة.. تظهر فجأة.. وهذه قطعة صغيرة تنفع مفرش.. وهذه ستارة لشباك المطبخ.. أما القصاقيص الصغيرة التى لا يمكن الاستفادة بها.. كانت أمى تضعها فى كيس، وتحتفظ بها فى حرص شديد فسيأتى وقت غالبا ما نستعين بها.. فى سد رقعة.. أو عمل تنية للبنطلون إذا ما فعلها أحد أخواتى بحماقة.. وطول شوية بلا تمهيد..

وإذا وصلت الهدوم لمرحلة المطربة صباح.. وأنا كل حتة فى

توبى دايبة.. تنزع منها الأزرار والسوست.. وكل ما خف حمله وغلا ثمنه.. وتحفظ بعناية فى علبة صفيح.. ويستخدم القماش كممسحة للبلاط.. أو للتلميع.

وفى روسيا توصلوا إلى حل روسى لأزمة القماش.. اثنان يشتركان فى ارتداء بنطلون واحد.. ولم يفقدهما الحل الغريب أناقتهما.. فهما خارجان على سنجة عشرة.. وفى منتهى الأناقة.. وطالما أن مشوارهما واحد.. فلا داعى للتبذير وللأنانية، وكل واحد يفصل له بنطلون لنفسه.. وهذا السفه الذى نعمله فى حياتنا دون أن نشعر..

صحيح أن اللى راكب ورا فقط هو المسموح له بأن يضع يده فى جيبه.. لكن مش مهم النهارده أنا ورا وأنت قدام.. بكره تعكس الوضع.. أما بالنسبة للفلوس.. فالجيب واحد.. واللى معايا معاك.. المهم أن تكون العلاقة بينهما ودية وليس بها غدر.

والتجربة على غرابتها تستحق الدراسة.. وأنا أقترح عمل بنطلون عائلى.. تلبسه سعادتك، ومعاك المدام والأولاد.. فإذا كان الكنغر الأسترالى قد فعلها.. فنحن لسنا أقل من الكنغر الأسترالى،

والجاكت بأه موديله عندى.. جاكت كبير مثل الخيمة بعشرة أكمام.. يكفى عائلة مكونة من خمسة أفراد..

المهم تدريب أطفالنا على الهدوء داخل البنطلون وأن يلتزموا الأدب.. فهذا طفل فى الخامسة عفريت.. ينط من بنطلون العيلة.. ويجرى.. ولن تستطيع العائلة اللحاق به بالطبع.. بحكم حركتها البطيئة.

وإذا به كالجن المصور.. يقفز فى بدلة عائلة أخرى.. وتبدأ المشاكل.. وهذا الحل العائلى للملابس.. سيروق للزوجات بصورة كبيرة طبعا.. فلن يستطيع أى زوج أن يخرج بمفرده إلا إذا كان إقطاعيا من أصحاب البنطلونات الفردية..

وسيوقف رجال المرور هذه العائلة المشاغبة، التى تمشى بسبعة أفراد؛ حيث إن قانون البنطلون العائلى سينص على ألاَّ يحمل أكثر من خمسة.. وسيطبق قانون ربط الحزام بصورة أكثر حزمًا.

ويقول لى صديقى بعد أول مشكلة مع زوجته ـ خلاص يا جو.. مش طايق ـ مش قادر أقعد أنا وهيه فى بنطلون واحد.. أنا ح أجيب بنطلون أقعد فيه لوحدى.. وهيه خليها فى بنطلونها مع العيال.. هنا.. أهدىء من روعه حتى لا يخرب البيت وأقوله ـ

شوف ـ بلاش تاخد الأمور بعصبية.. خليكوا فى البنطلون مع بعض، وكل واحد فى حاله لحد الأمور ما تهدأ.

أعزائى فى أيام الحرب ترفع الحكومة شعار اربطوا الحزام.. وكنا على أتم استعداد لأن نربطه وربطناه، وفى أيام السلام أيضا سنربط الحزام ونتحمل إلى أن يربطوا السلام.. وإذا كان كلامى مزعلكم أنا مستعد لأن أربط الكلام.

سأل الشاب جاره العجوز، الذى يجلس أمامه فى القطار القادم، من الإسكندرية هيه الساعة كام معاك يا والدى؟!

فرد عليه العجوز بجفاء.. متسأل الكومسارى يا أخى.. أنا مالى.. فدهش الشاب وقال.. طيب زعلان ليه.. بترد عليا كده ليه؟ فأجاب العجوز.. أنا فاهم حركاتكوا كويس.. ح أرد عليك بأدب ولطف.. هتاخد وتدى معايا فى الكلام.. ح تسألنى إنت رايح فين.. أنا عارف إنت أكيد كنت ح تسألنى السؤال ده.

ح أقولك دمنهور.. ح تقولى أحسن ناس.. ح أعزم عليك تتعشى عندنا.. عزومة مراكبية.. وإنت ح تبلط فى الخط.. فى البيت عندى ح تشوف بنتى تهانى الصغيرة.. وتحبها.. وبعدين ح تطلبها للجواز.. ح أرفض طلبك ده رفض قاطع ونهائى.. أنا مأجوزش بنتى لواحد مامعهوش ساعة.. تهانى ح تتمسك بيك.. أنا عارفها.. متدلعة وَشَبَّاطه.. ح اضطر فى النهاية أرضخ لضغطكوا عليا وأجوزكو..

أخويا عبد الخالق ح يقاطعنى لأنه مكلمنى على

تهانى لابنه مرسى.. بقى إنت عاوزنى أقاطع أخويا عبد الخالق عشان خاطرك إنت!!

دى هَزُلَتْ..

وقام الرجل العجوز من أمام الشاب المذهول، وهو يسب ويلعن فى أخلاقيات شباب هذه الأيام..

والشاب المسكين لم يفعل شيئا سوى أن سأله.. الساعة كام.. هل هذا الرجل مجنون؟

بالعكس الرجل يتكلم بالمنطق.. أشياء كثيرة فى حياتنا لو حسبتها، لوجدت أنها تصل بك إلى نتائج بعيدة..

وكلنا يعرف قصة الرجل الذى تعطلت سيارته فى الصحراء.. ووقف فى حيرة لا يعرف ماذا يفعل.. ونظر بعيدا ليجد بيتًا مضاء.. وفكر بينه وبين نفسه أروح أخبط ع البيت اللى هناك ده؟!

ثم تراجع وقال.. كده فى نص الليل.. أكيد صاحب البيت ح يستقبلنى وحش.. مش مهم ما انا ح أقوله ع المأزق اللى أنا فيه.. عربيتى عطلت.. هوه أنا جاى عشان اتضايف.. ح يقوللى وأنا أعمل لك إيه دلوقت.. ح أقوله أبات عندك للصبح.. سيندهش من اقتحامى له بالسؤال.. تبات عندى.. هى وكالة من غير

بواب.. أنا فاتحهُ سبيل.. سأرد عليه يا سيدى.. أنا مش شحات طالب حسنة.. أنا فى مشكلة.. سيقل أدبه بأى.. ويقوللى وأنا أعرفك منين مش يمكن تكون حرامى..

ينهارك أسود ومنيل.. أنا حرامى..

كان صاحبنا يفكر فى كل هذا الحوار، وهو فى طريقه إلى بيت الرجل الذى تخيله، وقد ثارت نفسه ضد الرجل دون أن يراه.. وطرق الباب فتح له صاحب البيت.. فقال له صاحب العربية.. مش عاوز من وشك حاجة.. غور..

إن هذه الحادثة على طرافتها تعكس نقطة خطيرة فى الطبيعة الإنسانية والتفكير الإنسانى.. وهو البناء والتوقع..

ولذا كثير من الناس يردون على أسئلة لم توجه لهم.. فأنا أرفع سماعة التليفون وأقول ألو.. يرد عليا الطرف الثانى بسرعة.. موضوعك خلص ياسيدى.. وهنا هو اختصر سؤالى.. عملت إيه فى الموضوع.. ذلك هو العقل المتيقظ، الذى يعمل بنشاط وبلا كلل طول الوقت..

ياليتنا جميعًا نختصر كل الجمل الزائدة فى الحياة.. لصار حوار حياتنا مكثفا وجميلاً ورائعًا.. تعالوا نشطب بأنفسنا العبارات التى هى تحصيل حاصل.. ستصبح ثورة فى لغة التعامل..

أتخيل أن تسأل مذيعة مطربًا.. وإيه آخر أخبارك.. فيرد عليها مغنيًا ليه يا حبيبى ليه يا حبيبى.. تسيبنى وحيد.. علطول هكذا.. ولايقول أنا باعمل ألبوم جديد نازل، وإن شاء الله يعجب الناس.. ثم تقول له المذيعة ياريت نسمع حبة من الأغنية الجديدة فيعتذر بأن صوته تعبان شوية.. فتلح هى.. ويغنى هو.. كل هذا مضيعة لوقتنا ولعمرنا.

ولذا فقد سعدت سعادة كبيرة بصديقتى العزيزة، التى سألتها هوه إحنا فى شهر إيه؟.. فأخرجت ساعة من حقيبتها وأعطتها لى، وقالت كل سنة وإنت طيب.. يا عينى.. هوه ده.. كانت ح تقوللى فى أغسطس أقولها كام أغسطس تقوللى ٧ أغسطس أقولها ياه.. ده أنا عيد ميلادى بعد ١٨ يوما.. ح تجيبيلى إيه..

لقد اختصرت الحوار الممل، ودخلت ع الجد علطول.. ولكنها حينما جاءنى تليفون وانتحيت جانباً لأرد عليه.. أخذت الساعة بعنف من يدى، وقالت هذا هو آخر يوم بيننا.. وانصرفت.. هنا.. عرفت.. ما الذى اختصرته صديقتى العزيزة.

فى مسألة الثناء على الآخرين وامتداحهم، أرجوك كن حريصا إلى درجة البخل.. إياك أن تفرط فى تقريظ الآخرين.. هكذا بلا حساب. أنا نبهتك وإنت حر..

كان عم سيد النجار، الذى يعمل لى المكتبة مسالما حنونا رقيقا كالبنت البكر.. يدخل الشقة على استحياء، كأنه لا يريد أن يدخل..

وحينما أفتح الباب، أجد ظهره أمامى ووجهه فى الأرض فى خجل أحسن يكون حد خالع راسه واللا حاجة.. اتفضل يا عم سيد.. يقول فى أدب.. طيب شوف السكة يا بيه.. إنه أحرص منى على حرمة بيتى.. خش يا عم سيد مفيش حد.. يخلع حذاءه على الباب فى أدب، ويجرى إلى حجرة المكتب حتى لا تقع عيناه على صورة لأحد من أهل البيت..

ويبدأ العمل فورا.. يطلع المتر والمسامير والمنشار، وينهمك فى العمل بلا هوادة..

وللحق.. أعجبنى عم سيد.. دخل دماغى..

والمكتبة التى عهدت إليه بصناعتها بدأت ملامحها تظهر.. حاجة تفرح..

أعمل لك شاى يا عم سيد.. يرد بحياء.. لسه شارب يا بيه ماتتعبش نفسك.. ولكنى أحلف.. وآتى بصينية الشاى.. فيقفز واقفا ليأخذها منى وهو يستغفر الله.. فكيف لبيه مثلى أن يعمل له الشاى ويحضره لغاية عنده كمان..

وبدأت أستشعر بالفعل لحظة فراقى لعم سيد، وأنا أذكر أننى كلما أعطيته دفعة من المبلغ المتفق عليه.. يقول ما تخللى يا بيه.. ما أنا جاى بكره.. والنبى خللى.. فى بيتها.. هكذا سأحرم من حنيته وأدبه.. لابد وأن أجيب رجله فى شغلانة تانية.. بقول إيه يا عم سيد.. ما تعمللى مكتب وكرسيين.. ملحوظة (أنا لست فى حاجة للمكتب ولا للكرسيين).. أنا فقط فى حاجة لأن أشعر أن الدنيا بخير.. وعم سيد هو الذى يغذى عندى هذا الشعور.. وخلصت المكتبة.. ووقفت أمامها مشدوها.. صنايعى على حق ربنا.. إنت إيدك تتلف فى حرير يا عم سيد.. إيه العظمة دى.. إنت مش نجار.. إنت دكتور ورئيس قسم كمان قوم.. قوم يا راجل..

وأخذت عم سيد إلى الأوتيل الفخم وعزمته على العشاء.. وكانت سهرة لطيفة.. قلت له فيها من تعبيرات المديح والثناء ما

أسعفتنى به اللغة العربية، وأوصلته حتى باب بيته.. وأنا أشعر أننى لم أفيه حقه بعد..

طبعا بعد السهرة لم أتوقع أن يأتى عم السيد فى اليوم التالى.. ولكنه لم يأت اليوم الذى تلاه.. ولا اللى بعده.. أسبوع مر وعم سيد واخد منى عربون المكتب والكرسيين.. ولم أر وجهه.. وقلقت عليه..

كلمته فى التليفون.. رد علىا بصوت ملىء بالزهق.. لا مؤاخذة يا بيه أصل فى إيدى شوية شغل.. قلت له.. ولكننا اتفقنا يا عم سيد أجاب بحدة.. إنت مش عاوز شغل مضبوط.. سيبنى براحتى قلت له براحتك ياعم سيد..

ومر شهر، وأنا سايبه براحته وأكلمه ويتهرب.. صار عم سيد نجما.. وصار يعاملنى كمعجب مفتون به، وكدت أطلب منه فى إحدى المكالمات أن يرسل لى صورة عليها توقيعه، وأضطررت أن ألجأ إلى نجار آخر..

تحت إلحاح المدام التى تتهمنى بإفساد الصنايعية.. وأننى لا أعرف كيف أعاملهم.. وجاء رمضان النجار البديل..بالخجل نفسه وبالحياء نفسه وبدأ يشتغل وعمل مكتبا تحفة.. قطعة فنية.. ودخلت المدام.. تأملت المكتب بقرف واحتقار.. وقالت بعصبية إيه ده..

النملية دى لا يمكن أحطها فى المطبخ عندى.. قلت لها.. دى مش النملية.. ده المكتب فصرخت.. ده.. مكتب!!؟! ارتجف رمضان النجار وأخذ يبحلق فى المكتب شاعرا بخطئه.. وقال فى محاولة يائسة وفاشلة للدفاع عن نفسه.. فيه إيه بس يا مدام.. قالت.. ده ذوقه بلدى أوى.. قال رمضان كل حاجة تتصلح يامدام ما تضايقيش نفسك..

وظل رمضان النجار يعمل فى المكتب يومين متتاليين.. يصنفر ويلمع ويكشط حتى خيل لى أحيانا أنه يلعقه بلسانه..وأخذ نصف الأجر المتفق عليه وكان مرضى..

ولأنى لم أتعود أن أكسف أحدا، جاء لى أحدهم برواية ليعرف رأيى فيها.. ولا أستطيع أن أصف كم العذاب الذى ذقته وأنا أقرأها.. شىء بشع.. حقير.. قذر.. تافه.. مسطح.. وجاء لى مبتسما وكأنه قطع نصف المشوار.

هه.. شفت الجو اللى أنا عامله فى الرواية.. أظن محدش قرب للحتة دى.. صح.. قلت له هايله.. إبداع.. إنت خلصت الموهبة والتمكن وداخل ع العبقرية.. وللأسف صدقنى.. وتركنى وقد آمن تماما أنه ليس له منافس سوى برنارد شو.. ثم مرت فى عينه نظرة

شك. . ، وقال لى بابتسامة صفراء. . بس ياريت ما تنقشهاش لو أخذت منها جملة ح أعرف. .

وفى الرواية التالية لى جاء ليتفرج وخرج من المسرح واندفع نحوى فى ضيق وغضب وقال. . الرواية دى روايتى أنا ح ارفع قضية. . أنا عارف إنت عملت إيه. . أخذت روح الرواية. . وكانت غلطتى أننى لم أقل له من البداية أن روايته جثة هامدة. . بلا روح. . وياريتنى رميتها فى وِشُّه. .

والسائق الذى أخذنى من الإسماعيلية. . وأخذ يحكى لى عن مغامراته فى تجنب الرادار. . حيث إنه بخبرته على الطريق يعرف الأماكن التى يعمل فيها الرادار، فيمشى على مهله. . والأماكن الأخرى الذى يتجاوز فيها المائة وأربعين كيلو فى الساعة. . وحينما مر من بين شاحنتين بالعافية، وكادت سيارتنا تنعجن بينهما قلت له، وأنا أبلع ريقى بصعوبة. . إنت سواق فاجر. . ده إنت كده. .

وكانت تلك السقطة التى وقعت فيها. . إذا توسلت إليه أن يهدئ السرعة قليلا. . يرفض تماما. . فهو يريد أن يثبت لى أنه السواق الفاجر الذى وصفته. . وإذا مشى بسرعة جنونية وسكت أنا. . يسرع أكثر ليثبت لى مهارته أكثر. .

وفقدت السيطرة عليه تماما. . فكان يترك الدركسيون ويخرج

شريطا من التابلوه.. والسيارة ماشيه لوحدها.. وأنا أتوسل إليه.. أبوس إيدك.. وهو يبتسم فى ثقة.. يا بيه الأوتومبيل عارف مين اللى سايقه.. ما تخافش.. أنا بقالى ع الأسفلت ٢٢ سنة وبعدين إحنا كلنا عيلة سواقين أبويا سواق وجدى سواق والواد منعم ابنى الصغير شغال ع السرفيس خط إمبابة.. و.. حاسب.. حاسب.. ماذا حدث.. أين أنا.. هذا مستشفى.. وهذا سرير أبيض.. آه.. دِراعى متجبس.. ياللألم الفظيع.. وطبيب وسيم يرتدى بالطو أبيض.. يبتسم لى فى ثقة.. حمد لله ع السلامة.. ربنا ستر.. أدينا جبسنالك دراعك.. واديتك إبرة تسكن الألم مستريح دلوقت..

وقبل أن أشكر الدكتور أو أثنى عليه أو أمدحه.. تذكرت كل حماقاتى السابقة فى مدح الآخرين، فأجبته بغضب وقلة ذوق.. يعنى جبت التايهة ياخى شوية جبس وحتة إبره.. ح تعمللى فيها بتاع.. أى تومرجى ساقط إعدادية يعملها...!!

كنت أكتب مسرحية، وتفضل المنتج مشكورا بإيداعى غرفة فى أحد الفنادق، مع تحديد إقامتى بها إلى أن أنتهى من الكتابة..

وحتى يتخلص تماما من تدخل الأصدقاء فى تلك الفترة العصبية، أصدر أوامره الحاسمة لعاملة الاستقبال بألا يوصلوا بى أى إنسان، مهما كان حتى تتحقق العزلة التامة التى أرادها لى.. باستثناء طبعا أن يكون المتكلم هو شخصيا.. أمير سيدهم.

وبينما كنت أتمشى فى زهق فى حديقة الأوتيل، وجدت أمامى أحد الأصدقاء بالمصادفة، فهتف بى قائلا: «بتعمل إيه هنا؟» قلت له بأكتب مسرحية.. قال عشان كده مختفى بأه.. دى الشلة كلها بتدور عليك.. قلت له هامسا.. غير مسموح لى بأن أكلم أى حد.. ولكن.. إذا أردت أن تكلمنى لأمر مهم.. فقط اتصل بالاستقبال وإذا سألتك الموظفة قل لها إنك أمير سيدهم.. هذه هى كلمة السر.. ولكن أرجوك ألا تخبر مخلوقًا بذلك..

وحدث يوما أن اتصل أحدهم بالاستقبال، وقال

للموظفة إنه أمير سيدهم.. لكن عاملة التليفون ردت عليه قائلة فى اندهاش أنا آسفة ياأستاذ أمير الخط مشغول؛ لأنه يتحدث إليك الآن.. كما أنك على الخط الآخر تنتظر دورك فى التحدث معه..

وبينما هى ترد على التليفون دخل شاب أنيق وقال لها باسما: من فضلك والله الأستاذ يوسف نازل فى أوضه كام؟ فسألته مين سيادتك فأجاب.. قوليله أمير سيدهم.

كان صديقى على ما يبدو قد أخبر مصر كلها عن كلمة السر، التى تمكنهم من الاتصال بى، والتى تفتح لهم باب الصومعة المعزولة التى وضعنى فيها المنتج.. فهذا يتصل بى.. ويقول للعاملة قوليله.. أمير سيدهم.. ثم يهتف بى بعد أن توصلنى به أنا كيمو يا بنى شفت عرفت أجيبك إزاى..

بعد قليل تتصل بى أمى لتطمئن على.. تسألها عاملة التليفون نقوللة مين.. فترد أمى فى طيبة.. قوليله أمير سيدهم يا حبيبتى..

وهكذا ظللت طول اليوم أتلقى تليفونات، ولم أكتب حرفا طبعا..

فى المساء كلمنى أمير سيدهم وهو يقول لى.. أظن سايبك طول النهار مارضيتش أتصل بيك عشان تعرف تكتب!! وهكذا يا أعزائى

بعد هذا الحجز الانفرادى، الذى حكم علىّ به لمجرد أن أكتب مسرحية.. قررت أن أعوِّد نفسى أن أكتب فى أى مكان فى وسط الناس.. على مقهى.. فى جلسة تضم عددا من الأصدقاء.. هم يتكلمون ويتضاحكون.. وأنا بينهم نصف مشارك معاهم ومش معاهم.. الفص الأيمن من مخى مديهولهم، والفص الأيسر هو الذى يفكر ويعطى أوامره للقلم ليكتب، وأدركت أن الكتابة بقدر ماهى فى حاجة شديدة إلى التركيز.. يجب أن يكتنفها أيضا قليل من التشتيت، أو بتعبير أدق.. قليل من الونس.. فذلك البرج العاجى وتلك الجزيرة المنعزلة قد تنتج فنًّا رائعا بلا شك، ولكن إذا كنت تكتب للناس وعن الناس، فالمسألة تحتاج شوية دوشة جنبك..

وكان الموسيقار العظيم عبد الوهاب يحب ذلك.. فإذا كان ذهنه يعمل فى لحن جديد.. كان يحب أن يكون حوله الأصدقاء.. إن وجودهم بجواره يشيع حالة من الدفء فى المكان.. كما أنه يؤكد لنفسه أن هؤلاء الموجودين.. هم السميعة الذين سوف يهللون للحن القادم ،كما أنه هو الملحن الذى سيضع اللحن..

هكذا تكتمل الدائرة.. ماذا تبقى؟ اللحن فقط.. وح ييجى أهوه.. ويذهب فى غيبوبة فنية جميلة.. فيختفى صوتهم،

ويتحولون بجواره إلى مجرد شفاه تتحرك.. ولكن فجأة يقوم أحدهم.. وهو دائما مفرق الجماعات، وهادم اللذات ويقول: إيه يا جماعة.. مش ياللا.. فيهمون بالانصراف..

هنا يحس بهم عبد الوهاب ويستوقفهم بإلحاح لا يمكن.. رايحين فين.. إحنا لسة كملنا كلامنا.. ده أنا كنت ح أسألكم سؤال مهم.. لو حبينا نرتب العقاد وطه حسين والحكيم.. نحط مين قبل مين؟ وهل هذا سؤال يجاب على الواقف؟ سيجلسون مرة ثانية طبعا وسيحتدم النقاش.. فالقنبلة التى أثارها عبد الوهاب ليست سهلة.. سيجلسون عليها بالطبع..

وهذا ما أراده عبد الوهاب الذى ما إن اطمأن أن الجلسة ولعت.. تركها وسافر بذهنه بعيدا وسرح هناك.. هناك حيث اللحن الذى يبحث عنه طول الجلسة..

ولم يكن عبد الوهاب وحده من مبدعى الدوشة.. أبو السعود الإبيارى كان يكتب على مقهى صفية حلمى، والسيد بدير كان ينتع الفيلم كله فى قعدة وسط الضجيج والطلبات والمشاريب.. ومثلهما كان الريحانى، وبديع خيرى، على مقهى فى عماد الدين يؤلفان المسرحيات والأفلام..

قلت هذا لزوجتى وهى تسألنى فى ضيق إزاى بتكتب فى الجو

ده؟ سألتها وأنا مستمر فى الكتابة.. الترزى خلص البنطلونات؟ فأجابت.. أيوه...، وعدت أسألها والقلم يجرى على الورق كالرهوان وأخد كام؟ وظل الحوار بينى وبينها على هذا الحال إلى أن انتهيت من كلامها.. الحوار والموضوع الذى أكتبه وهى مندهشة من قدرتى على الكتابة والكلام فى الوقت نفسه.. فى النهاية لملمت أوراقى وأقلامى وخرجنا.. ولا أعلم لماذا استاءت جدا حينما سألتها على باب الكافتيريا.. بالحق نسيت أسألك.. هو الترزى خلص البنطلونات؟

لاشك أننا نكره ذلك الشخص الذى إذا تحدث معنا فى إحدى الحفلات، دار بعينيه فى القاعة كمن يبحث عن خير منا ليتحدث إليه.. قلة ذوق..

يقابلنى بترحاب فاتحا ذراعيه.. حبيب قلبى.. إنت فين؟ ثم فجأة تتحول عيناه إلى كل من بالحفل إلا أنا.. يبتسم هنا ويشير لهذا ويضحك لتلك، مبتعداً عنى تماماً بفكره وروحه إلى أن يكتشف فجأة أننى الواقف أمامه.. فيهتف بى قائلا وهو ينظر بعيدا أيضا.. هما فتحوا البوفيه ولا لسه؟!

وتركت صاحبنا هذا دون أن يشعر بى ذاهبا إلى الحمام، وقبل أن أدخل الحمام، وجدته يشير لى من بعيد محييا إياى بالتحية نفسها.. حبيب قلبى.. إنت فين؟! كان قد نسى أننى الذى سلم عليه منذ قليل..

وعدت إلى ترابيزتى فوجدت الكرسى مشغولا.. كان أحدهم يجلس عليه فى استمتاع يصفق للمطرب الذى يغنى.. قلت له بذوق «معلش.. أنا آسف» الكرسى ده بتاعى فرد عليَّا بِجَلْيَطة قائلا: يعنى اشتريته؟! قلت له هامسا حتى لا يسمع الآخرون إن

البالطو الذى على الكرسى هذا بتاعى.. وأن الكوفيه بتاعتى.. وأن المفاتيح والموبايل التى على الترابيزة بتوعى.. فأجاب فى غيظ.. هيه بالحجز.. إحْنا فى الكلية هنا.. فتمالكت أعصابى قدر المستطاع وهمست له بصوت أكثر هَمْسًا أن تلك الجالسة في المعقد الذى بجواره هى زوجتى.. وأن الجالسة بجوارها حماتى.. وأن تلك السيدة اللطيفة الجالسة بجوارهما هى أمى، ولأننى أؤمن بالترابط العائلى.. فحبذا لو سمح لى بالجلوس معهم من أجل لم شمل العائلة.. أخيرا قام فى ضيق وهو يغمغم قلة ذوق!!

عند البوفيه.. كان كل المدعوين يعدون لأنفسهم الأطباق، كما يحلو لهم، ووقف أحدهم عند الديك الرومى وأحاطه بذراعيه وقال ثانية واحدة ياجماعة.. أما نقطع.. على مهلكوا كله هياخد.. ووقفنا جميعا بالأطباق الخالية، وكل منا يوجه إليه الطبق وقد ارتسمت على عيوننا نظرة صومالية أصيلة، وكل منا فى انتظار نصيبه من الديك الرومى..

ولكن الورك الأول أرسله خلسة إلى حيث أولاده وزوجته فى الترابيزة، والطبلة والصدر قطعهما وناولهما لأحد الأولاد وقال.. ودى دول عند طنطك زينات.. واختفى الديك فى لمح البصر..

وأخذت طبقى عائدا إلى ترابيزتى.. ولكن.. كان أحدهم

يجلس مكانى مرة أخرى.. قلت له والطبق الخالى فى يدى.. لو سمحت ده مكانى، وقبل أن يقول لى إنت اشتريته.. لا أعرف ماذا حدث.. فعلاً لم أكن أقصد ذلك.. كيف لبس الطبق فى وجهه.. وكيف انهالت الأطباق والأكواب على الجميع.. وما السبب فى كل هذا؟.. قلة الذوق بلاشك..

والذوق غير الأدب، فالأدب يمكن تعلمه إنما الذوق.. إحساس.. حاجة كده فى الدم.. عندك مثلا إذا أنا زرت أحدهم فى بيته.. أطرق الباب طرقة واحدة، وأنزل سلمتين ثلاثة حتى لايفاجأ بى من يفتح الباب لازق فى وشه.. فإذا كانت امرأة التى فتحت الباب. لا أرفع عينى فيها وإنما أسألها ووشى فى الأرض.. حمدى موجود؟! وإذا دخلت الشقة أدخلها كالأعمى لا أتجول بعينى داخل الشقة، وإنما يقودنى الدليل إلى حيث أجلس والكرسى الذى أجلس عليه، يصبح هو مساحة حريتى الوحيدة..

أما صديقى إياه.. فحينما يزورنى يضع يده على الجرس فى دق متواصل، وكأنه عربية إسعاف تفسح لنفسها الطريق..

وحينما أفتح أجده فى حضنى ويدخل الشقة مسرعا، وهو يقول ح أموت م الجوع يا جو.. شوف لنا المدام عاملة إيه؟ ثم يصرخ يا مدام.. يا مدام.. يا أم هيا.. ثم قبل أن يتحرك ويدخل إلى

الحجرات الداخلية يتساءل.. هما مش هنا ولا إيه.. أقبض عليه من ذراعه وأدفعه داخل حجرتى.. اتنيل اقعد هنا.. اتْرِزِعْ على الكرسى ده ما تقومش.. يرد فى لزوجة.. هو أنا غريب يا جدع.. ده بيتى أقول له.. لأ..مِشْ بيتك يا روح أمك.. يضحك ويقول.. أما إنت عليك هزار يا أخى ثم يمسك بالريموتات ويبدأ فى تشغيل الدش والفيديو.. إلى أن تختفى الصورة تماما ويبوظ الجهاز ثم يفتح المكتبة ويبدأ فى إخراج الكتب منها، وأنا فى حالة يرثى لها ولكن جرس الباب يدق.. ماذا أفعل؟ هل أتركه لأفتح الباب.. أنا لا أضمنه دقيقة واحدة..

فى النهاية أغلق عليه الباب بإحكام وأجرى لأفتح باب الشقة.. فأجد البواب.. عاوز إيه يايونس؟ يعطينى علبتين سجاير أسأله فى غيظ.. بتوع إيه دول يقول.. الباشا اللى عند سعادتك طلبهم وهوه طالع، وقبل أن أغلق البلب يقول لى عم يونس.. حساب السجائر يابيه.. أدفع الحساب وأنا ألعن اليوم الذى عرفته فيه، وأعود بها جريا إلى صديقى يأخذها فى برود وهو يقول.. دايما عامر يا أبو حجاج..

ويرن جرس التليفون، وقبل أن أرد يخطف منى السماعة ويقول.. ده علشانى.. أنا قايل لهم يطلبونى عندك..

ويغيب فى مكالمة طويلة.. ويروح ويجىء ورماد السجائر ينهال على السجاد والكراسى والكتب، وأنا من خلفه أحاول أن أحتوى الموقف.. وقررت أن أشغله بأى طريقة.. قلت له أقعد بس.. اسمع هذه الحكاية..

فى كتاب «هز القحوف فى شرح قصيدة أبو شادوف»، أقيمت مسابقة فى قلة الذوق.. واحتكم اثنان إلى لجنة، وكان كل منهما يدعى أنه يفوق زميله فى قلة الذوق..

وفى المسابقة اشترى الأول حزمة كبيرة من أغصان الشجر مليئة بالشوك وحملها على كتفه ومشى بها فى شارع الغورية الضيق المزدحم، وكان الشوك طبعًا يؤذى الناس، فكانوا يشتمونه.. ويلعنونه.. ويصفونه بقلة الذوق فكان يسعد بذلك، ويقول لأعضاء اللجنة أهوه سامعين..

جاء الدور على الثانى الذى اشترى حزمة من الأزهار ذات الرائحة الجميلة، وانطلق ووراءه اللجنة وأخذ يمر على المراحيض، ويفتح الباب على الجالس فى المرحاض ويقدم إليه الأزهار قائلا ـ لا شك أنك فى هذا المكان فى حاجة إلى الرائحة الذكية.. شم، الحزمة بقرش واحد فيدفع الرجل الباب فى وجهه بشدة ويشتمه وينعته بأبشع الألفاظ..

وجاءت اللجنة فى حكمها فقل لى أنت.. من منهما أكثر قلة ذوق من الآخر.. هرش فى رأسه قليلا ثم فجأة.. قام من مكانه وفتح باب الحجرة. وانطلق خارجا، فجريت وراءه وأمسكته رايح فين يا جدع إنت.. أجاب ببرود.. رايح أغسل إيدى.. هنا لم أتمالك أعصابى ودفعته نحو باب الشقة وألقيت به خارجا.. وأغلقت الباب.. إن صديقا مثل هذا كان يجب أن يعرض على اللجنة.. بعد نصف ساعة.. دق جرس الباب ففتحت.. ويالهول ما رأيت.. إنه هو.. بشحمه ولحمه.. عاد ليقول لى فى عتاب رزيل.. مش ح تبطّل هزارك التقيل ده بأه؟!!

خد بالك.. راقب من حولك.. قف.. وانظر من بعيد وتأمل الناس!! هه؟! ألم تلاحظ شيئا؟! يا أخى بص كويس.. الناس مخها ضرب يا عزيزى..

هذا لمحته واقفًا أمام مرآة فى الأوتيل الفخم.. كان وحده.. أو كان يظن أنه وحده، ولا يشعر أن عينا تراقبه.. وأخذت أتأمله.. ماذا كان يفعل أمام المرآة.. كان يمط بوزه للأمام.. ثم يفتح فمه عن آخره.. ثم يخرج لسانه.. ويقرب وجهه جدا من المرآة.. ويبتعد فجأة كأنه يلاعب نفسه.. ينكش الخصلة الأمامية من شعره.. مع أنها منكوشة لوحدها.. ويعطى ظهره للمرآة.. ثم يلتفت فجأة ويبتسم ثم يكشر.. ثم يسبل عينيه.. إلى أن يشعر بى.. فيرتبك لاقتحامى خلوته المورستانية هذه.. وتعود ملامحه عادية جدا..

ويخرج من حمام الأوتيل وينخرط بين المدعوين فى الفرح كأى مواطن عاقل!!.. وهذا كهل رأيته جالسا فى حديقة الأورمان ينظر معجبًا إلى شعاع من ضوء الشمس، كان يتخلل أوراق الشجر ويسقط بجواره.. فإذا به يحاول أن يقبض على الشعاع بيديه.. ثم يمسك

خشبة ويحاول أن يقطع الشعاع.. ثم يفتح فمه الخالى من الأسنان ويسمح للشعاع بأن يدخل فيه.. كأنه يشمس البلعوم.. ويظل يلعب مع الشعاع إلى أن يرانى.. فيعتدل فى جلسته، ويرسم على وجهه ملامح عميقة من الجد والوقار..

وآخر وجدته يسير وحده فى الصباح الباكر بمنتهى النشاط، ثم يضع ذراعه فجأة فى الهواء، كأنه يتأبط ذراع زوجته وينخرط فى حديث لا ينتهى مع الهواء، وهو يتمتم لها فى شكوى مرة: أعمل إيه بس يا عفاف.. أعمل إيه.. هوه ده المرتب.. أسرق؟! أختلس!! وحينما لمحنى أرقبه بنظرة خاطفة.. اتعدل علطول وعاد طبيعيا..

وهذه خرجت من سيارتها وهى تضحك.. تضحك بلا سبب.. فاشخة ضبًّها علطول.. فى البداية اعتقدت أننى المقصود بالضحك.. فابتسمت لها.. ولكنها ظلت تضحك، ولم يكن ضحكها رد فعل لابتسامتى، التى لم تشعر بها أساسًا لأنها قالت للبواب، وهى تضحك.. اركن العربية يا عم رمضان ثم قالت وهى تضحك.. حد سأل علىّ؟.. وحينما قال لها البواب لأ.. قالت وهى تضحك.. طيب.. وعلمت بعد ذلك لماذا كانت تضحك.. هكذا بلا سبب.. ليس لقلة أدب لا سمح الله.. وإنما لأنها كانت لسه منضفة أسنانها عند طبيب الأسنان، وصارت ناصعة البياض!!

وأخرى عندها غمازتان فى خديها، وقال لها أحد العشاق فى لحظة صدق كاذبة: إن سحرها يكمن فى هاتين الغمازتين، فأصيبت بشلل مؤقت فى الخدين، جعلها مبتسمة طول الوقت بلا داع لكى تظل الغمازات.. شغالة..

إن كل واحد منا عنده لحظات خاصة غامضة، يفعل فيها أشياء غريبة.. مهما كانت عقليته أو ثقافته.. فهذه حرباء فوق صخرة تصطلى بالشمس، ورآها الأديب الروسى الكبير تولستوى.. فهمس لها.. هل أنت سعيدة؟! ثم تلفت حواليه ووضع يديه فى جيوبه وهز كتفيه قائلا.. إننى أسألك لأننى لست سعيدا.. إن هذه التصرفات غير الطبيعية تجدها عند عظماء وأذكياء.. ففى العظمة نزوع وميل نحو التصرفات البلهاء، ربما لأن الناس يفرضون على العظماء شكلاً ثابتًا من الوقار والأهمية..

كنا جالسين فى أمان الله، نتجاذب أطراف الحديث، وفجأة قام من وسطنا بلا مقدمات صديقنا دردیرى.. وهو أكثرنا نحافة وأقصرنا طولاً، وراح لاسع صبرى.. قلم على وشه.. وصبرى هذا عملاق ضخم..

وبعد الصفعة المدوية.. مرت لحظة من الصمت الرهيب.. والدهشة.. ماذا حدث؟! وكيف حدث؟ ولماذا فعل دردیرى هذا؟

وكيف جرؤ؟ كل هذه الأسئلة ارتسمت على وجوهنا.. ولم تكن إجابتها عند سواه.. دردیری الذى قام من مكانه بهدوء، وقال ببساطة بل بمنتهى البراءة «سورى يا جماعة».. معرفش إيه اللى خلانى أعمل كده؟!

وذات مرة كنت أحضر مؤتمرا مهما، كان يحضره رجل بادى الأهمية.. بل كان الرجل يبدو أهم من المؤتمر نفسه.. كان صامتًا، ولكنه ذلك الصمت الوقور، الذى يجعلك تخاف تقرب منه.. وكنت أرى الآخرين يذهبون نحوه، ثم ينحنون ويهمسون فى أذنه بأشياء.. وهو لا يتحرك.. يومئ برأسه فقط واختفى فجأة من أمامى..

ولما كان أخوكم مزنوق طوال فعاليات المؤتمر، فما أن وجدت استراحة حتى جريت إلى الحمام.. و.. إذا بى أجد الرجل، واقفًا فى الحمام يقضى حاجته.. ويدندن مع نفسه.. ترى ماذا كان يقول؟! بسك نو يا بسك نو.. كل مادا عَمَّال تحلو..

ولما شعر بوجودى.. قفل بُقه بسرعة.. وقفل السوستة وخرج علطول.. وظل طوال فترة المؤتمر يتجنب أن تلتقى عيناه بى.. ولو يدرى صاحبنا هذا أنه كان أظرف بكثير فى الحمام منه على منصة المؤتمر..

إن إحساسنا بأننا مراقبون دائما، وأن هناك عينًا ما تطل علينا من ثقب ما.. يجعلنا نتصرف بشكل مفتعل، وكأننا عند المصوراتى ناخد صورة ستة فى تسعة فنفتعل الضحكة.. ونمثل البصة.. ولذا أنا غير راض عن كل الصور التى التُقطت لى.. ليس لأنى أحلى لا سمح الله.. ولكن لأن المتصور أمامكم هذا ليس أنا بالفعل..

وهذه الضحكة البلهاء التى ترونها فى الصورة أمرنى أن أفعلها مصوراتى.. قال اضحك.. فضحكت.. لم يقل لى نكتة.. لم يحك لى موقفا لطيفًا.. وفى الحقيقة أنا لم أكن أضحك، وإنما فتحت بُقِّى كما ترون بحركة ميكانيكية.. كأنى أفتح درجا أو علبة سردين، ومع ذلك صدقها الناس واعتبروا أن هذا.. هو.. أنا..

وقد التقى بى أحد القراء ذات يوم، وأنا جالس مبوز ومش طايق نفسى وأخذ يحملق فيا.. مشبها أو مستغربا.. كأنه يرى مخلوقا من كوكب آخر فنظرت إليه.. وحتى أريحه.. روحت فاتح علبة السردين.. أعنى.. فمى تماما كما فى الصورة.. هنا قال.. يوسف معاطى.. أهلا.. ما أنا بأقول م الصبح؟؟ وقال لزميله مش بقولك.. هوه.. الغريب أن الوجه الذى تعرف عليه حينما رآه راسما ضحكة مصنوعة كاذبة.. ليس وجهى.. أما الآخر.. اللى كان قاعد ضارب بوز ومش طايق حد.. هو أنا بالفعل..

قفشات من
عسل البنـــات

كنا أنا وصديقى نشاهد السيرك.. وكانت مروضة الأسود الحسناء تضع بين شفتيها قطعة سكر، حين تقدم منها الأسد الضخم، فالتقط قطعة السكر بفمه من بين شفتيها.. دون أن يبدو عليها أى خوف أو وجل.. وصفق الجمهور لها تصفيقا حادا.

هنا قلت لصديقى الذى كان يصفق لها بحرارة.. وماذا فى هذا.. أنا أستطيع أن أفعل ذلك بسهولة.. قال صديقى مندهشا.. تستطيع أن تفعل مثلها حقا.. قلت له.. لا.. أستطيع أن أفعل مثلما فعل الأسد.

كان له زوجتان وذات يوم جاءتا إليه، وقالت إحداهما اتحبنى أنا أكثر أم تلك، وقالت الثانية مثل ذلك.. فحار الزوج وأجاب بإجابات مبهمة مثل أنا بحبكوا انتوا الاثنين وأنا ليا مين غيركوا ولكنهما لم يقتنعا بالإجابة فقالت له زوجته الصغرى..

لو غرقنا ونحن نسبح فى البحيرة وكنت أنت على البر فأى واحدة تنقذها أولا؟ احتار الزوج وفقد صوابه ثم التفت إلى امرأته القديمة، وقال: أظنك تعرفين السباحة قليلا يا عزيزتى؟

دُعِى برنارد شو إلى حفل عشاء، وأجلسوه بين فتاتين من أجمل المدعوات، وانتظر الجميع شو أن يشيع فى الحفل روحه الساخرة.. ولكنه بقى صامتا جامدا كالتمثال.. فسألته الجالسة عن يمينه.. أتحس ألما.. أراك لا تتحرك

فأجاب: حقا.. إن جمالك قد شل منى الجسد.. إن جانبى الأيسر قد أصابه الشلل فعلا.. لقد ظللت أقرص فخذى طول العشرين دقيقة الماضية ولم أشعر بشىء.

فأجابته الجالسة عن يساره :

ولكن يا مستر شو.. إنتا كنت تقرص فخذى أنا.

قلت له ونحن واقفان فى الحفل..

مـن هـذه السيـدة القبيـحة الـواقفـة عنـد البوفيه، ولا تتوقف عن الأكل أبدًا.. هل تعرفها؟!

فقال.. إنها زوجتى.

قلت له.. (فى خجل) أنا أسف.. لم أكن أعلم.. أرجو أن تغفر لى غلطتى.

فقال.. (فى خجل أكثر) لا.. لا.. إنها غلطتى أنا..

قلت له : لقد تزوج حمدى.. أنا واثق من أنه تزوج

فقال لى: وكيف عرفت أنه متزوج، مع أنه لم يذكر شيئًا عن ذلك، وليست فى أصبعه دبلة.

قلت له: لقد عرفت من تأثره وتعاطفه عندما سمع أننى تزوجت.

قال لى: بسم الله ما شاء الله كده يا بو حجاج.. إحنا أربع إخوات اثنين عايشين.. واثين بعد الشر عنك.. متجوزين.. قلت له ياراجل.. دا إنتا عريس جديد لسه فى شهر العسل.. فقدم لى صورة العروس، وقال باكيًا: قل لى رأيك.. ويا للهول على رأى يوسف بك وهبى قلت له.. ما هذا:. حولاء وصلعاء وطويلة الأنف وكبيرة الفم وضيقة العينين و.. وأخذت أعدد فى عيوبها حتى دخلت.. فسكت عن الكلام على الفور.. فقال زوجها تكلم يا أخى.. أكمل.. المدام ما بتسمعش.. خايف من إيه.. قول...

قال لى وهو يشرد بعيدًا.. آه.. يا جو.. فتاة الأحلام حاجة، والجواز حاجة تانية خالص.. أنا حبيت قبل الجواز بنت.. ولا سندريللا.. ولا مريم فخر الدين فى حكاية حب.. رقة إيه.. جمال إيه.. فراشة طايرة.. كانت لما تضحك، قلبى ده يرقص.. لما تبص لى.. أتلبش.. حب يابا.. حب.. ورومانسية وشاعرية.. مش الهم اللى إحنا فيه.. قلت له: ولما كنت تحبها إلى هذه الدرجة.. لماذا لم تتزوجها قال فى غيظ: ما أنا اتجوزتها.. ما هية اللى معايا دى!!!

صديقى هذا كان موضع حسدنا كلنا.. كلنا نحقد عليه.. ونتميز لحاله.. فهو يعيش حياة زوجية مستقرة للغاية.. لم يحدث أى خلاف بنيه وبين زوجته ولا مشادة بسيطة ولا حتى سوء تفاهم.. ولقد سألته عن سر هذا التوفيق فى الحياة الزوجية، فقال المسألة بسيطة خالص.. لقد أتفقنا.. فى الصباح، تعمل زوجتى ما تشاء، وفى المساء أنا أعمل «برحته» ما تشاء!!! أنا مين!!

تسلل على أطراف أصابعه إلى حيث تجلس زوجته، وغمى عينيها بيده وغير صوته، وقال.. أنا مين؟! وإذا معرفتيش أنا مين.. ح أبوسك فى خدك.. قالت زوجته.. إنتا.. إنتا.. إنتا.. مش عارفة مين؟!!.

قال لى . . تعرف يا أخى . . إمبارح حصل موقف مؤثر جدًا . . واحد معدى قدام القهوة راح متزحلق وواقع فى البلاغة . . وكل القهوة ضحكت عله إلا أن . .

قلت له . . واشمعنى إنتا اللى ما ضحكتش . .

فقال . . لانى أنا اللى وقعت . .

بهرنى شكسبير.. وحيرنى يا أخى.. كنت أقول لصديقى الناقد هذا الكلام.. ثم قلت له تعرف.. أنا لما أموت وأروح الجنة إن شاء الله.. حاقول لشكبير إنه مش ممكن يكون هو اللى ألّف كل الروايات دى..

فقال الناقد باسمًا: طيب وافرض إنك ما لقيتوش فى الجنة فقلت له: فى الحالة دى بأه قولّلو إنتا.

المحتويات

مقدمة.... 7
إبعدى قليلا.. حتى أحبك.... 11
متى تتذكر حبيبتك؟!.... 15
الفيمتـــومشيـــة.... 21
الستات ما يعرفوش.. يضحكوا.... 25
ولا حياء لمن تنادى.... 30
احنا غلابة يا ست هانم.... 35
مجـــرد كـــلام.... 39
واهجروهن فى المضاجع.... 44
مدرسة الأزواج.... 49
طار يا حبيبى طار.... 57
يوم من عمرى 61
إنت كويس!.... 64
العقد زينة.... 68

حياة الكلاب.... 72
برشامة للسعادة.... 76
الحب باظ!!.... 82
الشعلة!!.... 91
بصل للنهاية.... 95
امسك حبيبى.... 100
ست.. إنما راجل!.... 104
كلينتون يعلن: مقدرش أحب اثنين علشان ماليش!.... 111
ألو.. ألو.. إحنا هنا.... 118
تالتة/ أول.... 124
مبروك ع الأرض.... 129
قول آه 135
الحياة بأه لونها سمنى.... 143
البيوت أشرار.... 147
اربطوا الأحزمة.... 152
قولوا تشييز.... 155
تسمح لى أشرب من دمك.... 160
الهدوم والهموم.... 165
اختصر يا عزيزى.. اختصر.... 170

تحسين القبيح وتقبيح المديح.... 174
قليل من الونس.... 180
ناس ذوق.. ذوق.. ذوق.... 185
كواليس الناس 191
«قفشات من عسل البنات».... 197